محمد المبارك

الفكر الإسلامي الحديث

في مواجهة الأفكار الغربية

دار الفكر

بيروت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

في الصفحات التالية من هذا الكتاب الذي لم أحاول أن أجعله كتاباً تقليدياً ينقسم إلى فصول وأبواب ، أو كتاباً مدرسياً يسير على منهج تعليمي متدرج أعرض من غير ترتيب مصنوع ولا خطة متكلفة المشكلة التي هي أم مشكلاتنا والتي هي مرجع المشكلات التي نصادفها اليوم في ميدان الفكر والسياسة والاقتصاد والأدب ، وهي مشكلة واحدة ولكن لها جوانب وصور مختلفة أقدمها للقارىء لا على أنها وجهة نظر فحسب بل على انها تجربة فكرية ، وقد تكون مشابهة أو مخالفة لتجربة آخرين مثلي ، وعلى القارىء أن يستعرض هذه التجارب المختلفة وأن يوازن ويفاضل ويختار .

وسيعرف القارىء قصة هذه التجربة في الصفحات الأولى التي تتلو هذه المقدمة ، وهي كما سميتها قصة جيل ، ولكنها أيضاً قصتي وقصة أمثالي في البلاد العربية والإسلامية ، وإني بانتظار اليوم الذي أبسط فيه ما أوجزت من هذه القصة ولكني ألقيها الآن كما خطها القلم هكذا على إيجازها لأعرف مدى تجاوب القراء معها وتفتحهم لها ومواقفهم المختلفة منها

راجياً من الله تسديد الخطى وتوفيق الجيل الصاعد للأخذ بخير ما أنتجه الجيل الذي سبقه وتصحيح ما في مسيره من انحراف وفي عمله من خطأ ليكون انتقاله من طور إلى طور أفضل ، فطالما كان التطور تردياً والتغير تفسخاً والتقدم تأخراً ، وإلى القارىء الكريم قصتي وقصة الجيل .

الخرطوم ١ شوال ١٣٨٧
١٩٦٨/١/١

محمد المبارك
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

قصة جيل

إن جيلنا المخضرم ، الذي تفتّح وعيه حين كان شبح الحرب العالمية الأولى يولي تاركاً وراءه ما ترك من آثار ، قد شهد تجربة عميقة الغور بعيدة المدى متنوعة الآفاق . فقد ظهرت بعد الحرب نتائجها ونتائج ما تقدمها من تمخضات وإرهاصات وتفاعلات بين الشرق والغرب .

لقد شهد جيلنا هذا – ولا سيما من كان منه في مواقع تسمح لـــه بالرؤية الواضحة والمشاهدة – المعارك وضروب التطور والتبدل في ميادين الثقافة والسياسة ، وفي شتى البيئات الحضرية والريفية .

لقد شهدنا عهداً يدبر وعهداً يُقبل ، وحركة مستمرة أمامنا ووراءنا ، وكانت تطرق مسامعنا ، مذ وعينا ، ألفاظ (النهضة) و (التقدم) قبل أن ندرك حقيقة معانيها .

نشأنا على مشاهد الصراع بين الفصحى والعامية ، بين العربية والشعوبية الفرعونية والاقليمية ، بين الدين واللادين ،

بين الاستقلال والاستعمار . شهدنا – وكنا تلاميذ في مقاعد الدرس – كل حملات التشكيك في مُثلنا وقيمنا وحضارتنا وديننا ولغتنا ، والمحاولات القوية التي تغذيها مراكز خارجية سياسية وعلمية لزحزحتنا عن مواقع دفاعنا . ثم شهدنا كذلك انحسار كثير من هذه الثورات والموجات حين ذهب منها الزبد وبقي ما ينفع الناس ؛ وتراجع كثير من أئمة الهدم والتقويض ، عن اقتناع أو عن مصلحة ، عـن الخط الذي يسيرون فيه .

لقد استمان مجتمعنا العربي خاصة والإسلامي عامة ، بدم أجنبي غريب ليتحرك وينهض ، فتحرك ونهـض ، ولكن بنبضات ذلك الدم الغريب . فكانت نهضة ولكنها اقترنت بآفات جديدة لم تكن معروفة ، فتعاقبت علينا ، بعد لقاء الشرق بالغرب خلال قرنين من الزمن ، ألوان من المذاهب والفلسفات فأخذنا من كل منها بطرف .

عرف مجتمعنا أولاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، عن طريق الدولة العثمانية ومصر ، مدنية فرنسا وكانت في أوج مجدها ، تلك المدنية التي تعتبر الفرد الانساني الوحدة الأساسية والقيمة العليا ، وأساس السياسة والاقتصاد والأخلاق ، وكذلك كانت المدنية الانكليزية التي كان لها كذلك تأثيرها في المجتمع الإسلامي ، وهكذا عرفنا النظام الديمقراطي النيابي في مجال السياسة والنظام الرأسمالي الحر

في المجال الاقتصادي وأخذنا بكثير من أفكارها ومفاهيمها في مجال الأخلاق والدين فقد انتهت ظروف التاريخ بفرنسا إلى العلمانية أو فصل الدين عن الدولة ونظامها، وإلى الحرية الفردية في مجال الأخلاق دون التزام القيم الخلقية المتعارف عليها. وكانت الرابطة التي تنظم أفراد المجتمع كله فيها هي (الوطنية) وعليها تدور كل المعاني العامة والحركات الاجتماعية والسياسة الخارجية.

ثم جاءت من بعد ذلك موجة أخرى في القرن التاسع عشر بتأثير الثقافة الالمانية التي جاءتنا بطريق مباشر أو غير مباشر في عهد الدولة العثمانية التي اتصلت يومئذ اتصالاً وثيقاً بألمانيا تجارياً وثقافياً وعسكرياً. والأمة في هذه الثقافة هي الأساس لا الفرد، فهي المتصفة بالبقاء والاستمرار، وخصائصها المشتركة المتوارثة هي قوام المجتمع، وهي الثروة التي تحرص على بقائها، وليست الدساتير والقوانين إلا ترجمة لها وتعبيراً عنها، وعلى الفرد أن يتقيد في سلوكه بالمثل المستقاة منها. وهكذا حلت (القومية) - سواء اتخذت مفهوماً ثقافياً أم عصرياً - محل (الوطنية) أو انضافت إليها واقترنت بها وأخذت توصف بها الأحزاب والحركات والنهضات كما يوصف بها الاقتصاد والتربية والسياسة بعد أن كانت توصف هذه كلها قبل ذلك بالوطنية. وغدت (المصلحة القومية) أساس التشريع والسياسة لا (الحرية الفردية) بل أصبح الفرد

مقيداً بقيود هذه المصلحة القومية . وقد تأثر العرب والأتراك معاً بهذا اللون من التفكير .

ثم جاءت موجة ثالثة هي **(الاشتراكية)** ، ولا نعني بها اشتراكية « فوريه » و « سان سيمون » وأمثالهما ، وإنما نعني (الماركسية) فتأثر مجتمعنا بها من الناحيتين الاقتصادية والسياسية بل من الناحية الفكرية والعَقَدية . وقد وفدت هذه الفكرة بادىء الأمر مع الثقافة الفرنسية ذات الألوان المتعددة ، وذلك عن طريق البعثات الثقافية والكتب من بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن تأثير الاشتراكية بقي ضعيفاً في مجتمعنا الإسلامي حتى الحرب العالمية الثانية ؛ فلما انقضت هذه الحرب واشتدت وطأة الاستعمار الغربي انتهزت الدولة الاشتراكية الكبرى الظافرة في الحرب هذه الفرصة وفتحت للشرق الإسلامي ذراعيها وأبدت عواطف الود وبادرت للمساعدة في بيع السلاح والوقوف مع بعض الحكومات العربية والإسلامية في المواقف الدولية التي كانت في مصلحتها ، واستثمر أصحاب هذه الفكرة ودعاتها من أبناء المجتمع الإسلامي هذه المواقف وظروف الحكم السيئة في كل بلد للدعوة إلى مذهب يزعمون انه المنقذ للشعب من هذه المساوىء وتلك المظالم وأولئك الحكام .

إن هذه التيارات والنزعات التي وصفناها لم تدخل المجتمع الإسلامي دخول الواغل الطفيلي ولا دخول العدو القاهر ولكن

دخول النصير المنجد والمستنصَر المُسعف ودخول الطعام إلى بطن الجائع دون النظر في نوع الطعام .

ذلك أن كل فكرة أو فلسفة منها جاءت والظروف لها مواتية والنفوس لقبولها مستعدة فالوطنية حملت الينا حين كنا في حاجة إلى الشورى في الحكم والحرية الفردية في المجال السياسي والى الارتباط بالأرض والجماعة التي ننتسب اليها بعد أن تجزأنا إلى أفراد . والفكرة القومية جاءت في وقت كان العرب فيه يفتشون عن سبب مسوغ لانفصالهم عن الأتراك الذين يشتركون معهم في الدين وفي عهد كان فيه حزب الاتحاد والترقي ثم تركيا الفتاة يحاول أن يجعل الحكم حكم أتراك لعرب لا حكماً إسلامياً تشترك فيه عدة شعوب على أساس المساواة فكان الاتجاه القومي عند العرب رد فعل غذته عوامل خارجية واستثمرته لمصلحتها ثم وضع في صيغة فلسفية معينة بدوافع أخرى أيضاً . وكذلك يمكن أن نقول عن الاشتراكية فقد جاءت في ظروف تطلع فيها الناس إلى نيل حقوقهم الاقتصادية وفي زمن كانت مصلحة الشعب العربي وبعض الشعوب الإسلامية من وجهة السياسة الدولية في الجانب الذي تقف فيه الدول الاشتراكية ولكن هذا شيء والأخذ بالفلسفة الماركسية شيء آخر .

والخلاصة أن هذه التيارات انتهزت فرصاً مناسبة وظروفاً اجتماعية مواتية واستفادت كذلك من فرصة ذهبية بالنسبة

اليها هي أن الاسلام كان قد انحسر خلال عصور الانحطاط عن الساحة العامة وحالت بين مفاهيمه الاجتماعية السامية ومعالمه الرئيسية وبين جمهور الشعب حواجز كثيفة من الجهل والتشويـــه والشوائب الغريبة عنه وتقلص في نفوس المسلمين وضمر حتى عاد ديناً بالمعنى الأروبي أي مجموعة عقائد تتعلق بما وراء هذه الدنيا ومجموع شعائر تعبدية . وكأن معانيه النضالية لتحرير البشر، والاجتماعية لاقامة مجتمع عادل سعيد، قد طمست أو كادت أو جعلت على الأقل في المرتبة الثانية بعيدة عن الحياة .

وحين بدأ الاسلام يستيقظ ويستعيد قوته وصفاءه ومعانيه العميقة ويمتد إلى الساحة الاجتماعية وأخذت نبتته تظهر وتنمو لتحل محل التيارات الدخيلة في علاج المشكلات كانت تلك التيارات قد اشتدت واستحكم أمرها وصلب عودها وأصبح التغلب عليها أمراً صعباً يحتاج إلى فترة غير قصيرة من الزمن .

وهكذا توالت تلك التيارات الفكرية وتعاقبت ثم تلاقت وتداخلت واستقرت في مجتمعنا الإسلامي ابتداء من تيار (الوطنية) الذي يعتمد على الفرد وحريته إلى التيار (القومي) الذي يقدس الأمـــة ويتعصب للجنس والقوم إلى التيار (الاشتراكي) الذي يستهدف اقتصادياً تأميم وسائل الانتاج وإلغاء الملكية الفردية وسياسياً موالاة المعسكر الاشتراكي وعَقَدياً نشر المذهب المادي الذي يعتبر الوجود مادة تتطور

بذاتها بموجب قانون التضاد ويعتبر المثل الخلقية والأديان نتاجاً من ثمرات التطور الاجتماعي بل من أسوأ هذه الثمرات في زعمه وأمرّها طعماً .

وعلى أساس هذه الفلسفات والمذاهب تكونت في البلاد العربية والإسلامية كثير من الهيئات السياسية والتيارات الفكرية ونشأ عن ذلك تعدد الفلسفات والعقائد وتشتت المجتمع وفقدان الصعيد المشترك الذي يمكن الالتقاء عليه في داخل كل شعب من الشعوب الإسلامية ، وبين هذه الشعوب الإسلامية ، بل فقدان الحد الأدنى الضروري من الانسجام الذي به تتماسك الأمة الواحدة ، وبه تصبح أمة ، وبدونه تصبح مجموعة أفراد وجماعات .

وبينا يجري هذا كله في البيئات المثقفة والسياسية من المجتمع ، تبقى الجمهرة الكبرى من الشعب مخلصة لفكرة تأصلت فيها ورسخت خلال قرون طويلة وعاشت معها وكونت أكثر أفكارها ومفاهيمها وعاداتها ونظمها ومثلها العليا وقيمها الأخلاقية وهي الإسلام مهما يكن الشكل الذي فهمت به هذا الإسلام ، وإن كانت تأثرت بتلك المذاهب الجديدة تأثراً سطحياً محدوداً يزداد قوة مع الزمن .

ولكن الإسلام بمبادئه النظرية وأشكاله الحضارية عملت فيه – كما قلنا – عوامل التبديل والتغيير وعوامل الانحراف فشوهت بعض التشويه صورته وأنقصت بعض جوانبه وبدلت

معاييره وتعطلت بسبب ذلك إلى حد كبير فعاليته ، ولم يعد يعطي الثمار التي كان يعطيها أيام نقائه وكماله ، ولكنه مع ذلك عميق الجذور راسخها وثيق الارتباط بنفوس الجماهير في الشعوب الإسلامية

ولئن استطاعت العواطف المختزنة وبواقي الأفكار الحية من هذا الإسلام أن تمد حركة مقاومة الاستعمار بروح قوية وتمد الثورات بمدد شعبي قوي ، كما وقع في حرب الأمير عبد القادر الجزائري والأمير محمد عبدالكريم الخطابي والسنوسيين في ليبيا وسعيد شامل في قفقاسيا ، وفي ثورات مسلمي الأفغان والهند على الانكليز ، وفي سورية ومصر وفلسطين وعُمان وغيرها ، فإنها لم تستطع أن تواجه الغزو الفكري والاقتصادي لِما آل إليه حال هذه الروح الإسلامية من الضعف والتخلف وفقدان الحيوية الفكرية والعملية والانحطاط عن مستواها الحضاري السابق ، لذلك استعان الشرق الإسلامي بسلاح عدوه ، وتداوى بما وجده في صيدليته وأقبل على ماعنده – على ما فيه من خير أو شر ومن فضيلة أو رذيلة – لأنه وجد فيه عدة القوي ، وعظم ذلك في نفسه لعظم عدوه في نفسه ، فكان يجد كل ما يأتي من قبله مصدر قوة وسبب مجد وعظمة ، وذلك لأن النفوس تحكم على الأشياء المقترنة المتلازمة حكماً واحداً ولو لم تكن هذه كذلك ، بحكم القانون النفسي المعروف قانون تداعي الأفكار . وهكذا تم الغزو والنفوذ الفكري الذي لم يزُل بزوال الاستعمار العسكري لأنه اتخذ من أبناء

البلاد أنفسهم دعاة له ودعائم يستند إليها .

وكان الإسلام في خلال ذلك ينهض ويتحرك ، ولكن كان عليه وعلى أبنائه ودعاته أن يضطلعوا بأمرين : أحدهما تخليصه مما شابه وشوّهه خلال عصور الانحطاط والتخلف ، وثانيهما : الوقوف أمام تحدي الغرب وعقائده وفلسفاته ونظمه ، وسارت العمليتان في آن واحد ، فكان الجهد مبذولاً لإزالة ما غشي عليه وعلق به من الشوائب وتصحيح المفاهيم وإعادة النسب والمقاييس إلى أصلها ، وإبراز ما أغفل من أقسامه . وكانت هذه العملية شاقة طويلة لأنها تقتضي تغيير عقلية تكوّنت في قرون ، وعواطف رُبيت في زمن طويل ، ولا تزال هذه العملية مستمرة والحاجة إليها قائمة . أما العملية الثانية فقد بدأت في أول أمرها بالموازنة والمقابلة والبحث عما في الإسلام مما يماثل أفكار الحضارة الغربية ونظمها ومر المجتمع بمرحلة التوفيق بين الاسلام والأفكار الغربية . وفي هذه المرحلة ألبست الأفكار الغربية أحياناً لباس الإسلام ليسهل مرورها واجتيازها إلى المجتمع الإسلامي ، وألبس الإسلام أحياناً أخرى لباس الأفكار الغربية [1] ليسهل على

---

(١) إن التفريق بين العمليتين هام جداً – وان كان دقيقاً – من حيث الحكم على القائمين بهما فبينما يعمل القائمون بالعملية الأولى عملا يراد به نقل المسلمين الى الفكر الغربي وكثيراً ما يساعدهم على ذلك بعض أهل الغرب من رجال الفكر أو السياسة يحاول الفريق الآخر بدافع الاخلاص للاسلام والحرص على نشر دعوته تقريبه الى العقول . هذا بصرف النظر عما يمكن أن يقع في عملهم من خطأ أو صواب .

العقول التي أَلِفت التفكير الغربي واتخذت أساليبه أن تستسيغه وتقبله، فكانت هذه المرحلة جسراً يصل بين الإسلام والفكر الغربي، فكان فيها الصحيح والزائف والأصيل والدخيل.

وكان لهذه المرحلة فوائدها ومضارها، فكانت سبيلاً للكشف عن كثير من جوانب عظمة الإسلام وجلاء حكمة أحكامه، كما كانت أحياناً طريقاً للانحراف والتعسف في تأويل نصوصه وإلباسه غير ثوبه وإقحام أفكار غريبة عليه. ولذلك كان لا بد من أن تعقبها **مرحلة ثالثة** تزيل هذا التلفيق بين فكرتين وعقيدتين ونظامين مختلفين مع الاحتفاظ بعلو المستوى الذي بلغته نهضة الإسلام الحديثة. وهذه المرحلة الأخيرة تتسم بالأصالة وتتجلى فيها **ذاتية الاسلام** وخصائصه المميزة. ومن أجل هذا نفسه، وبسبب التجربة التي مرت بها النهضة تتصف هذه المرحلة بالعمق الذي اكتسبته خلال البحث الجاد عن الذات، ذلك البحث الذي اقتضى معرفة الفكر الغربي بخصائصه، والفكر الإسلامي كذلك وما بينهما من فروق جليلة أو دقيقة.

ولكن الفكر الإسلامي، إذ كان عليه أن يقوم بالعمليتين عملية التحرر من تشويه عصور الانحطاط وعملية الوقوف أمام الفكر الغربي – سواء عن طريق التوفيق أو المعارضة – وإعادة النظر في صياغة نفسه صياغة تتناسب مع الحياة الحاضرة، كان عليه في الوقت نفسه أن يدخل في صراع داخلي في المجتمع الإسلامي نفسه مع التيارات التي كونها

الفكر الغربي ، والـتي تجهل الإسلام بل تحمل عنه صورة مشوّهة مزيفة على اختلاف مواقفها منه [١] .

---

(١) وهي مواقف مختلفة فالفكرة الوطنية ، بناء على فلسفتها الفردية ، ترى فيه أمراً شخصياً متروكاً للفرد نفسه ولذلك كان على الدولة أن تقف منه موقف الحياد فلا تؤيده وتدعمه ولا تحاربه وهذه هي النزعة العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة .

والفكرة القومية اذا كانت مجرد فكرة سياسية فموقفهـا يشابه موقف الفكرة الوطنية . وأما اذا كانت تعتبر القومية عقيدة فهي ترى في الاسلام مرحلة من مراحل القومية العربية وتعبيراً عن مثلها في طور من أطوارها فهو (تراث) و (ماضي) ولك أن تصفه بعد ذلك بما شئت من صفات المدح والتمجيد بهذا الاعتبار على الا تتجاوز به هـذا التقويم التاريخي المرحلي . وظاهر هذه الأفكار التعصب للعروبة وباطنها اجتثاث أصولها وتفريـغ مضمونها وفصلها عن تاريخها سواء أكان المعبرون عن هذه الفكرة شعوبيين عن وعي وتصميم أم كانوا مخدوعين بتأثير ثقافتهم الخاصة بهذه الفلسفةالمدخولة ومن أصحاب هذه الفكرة ساطع الحصري وعلي ناصر الدين ، واكثر دعـاة الحركات القومية وكتابها .

وأما الفكرة الاشتراكية الماركسية فموقفها في ينابيعهـا الأصيلة واضح لا لبس فيه فالدين في نظر ماركس (أفيون الشعوب) ولذلك كانت محاربة الدين على حد قول لينين « ألف باء كل مذهب مادي وبالتالي الماركسية ولكنها لا تقف عند هذا الحد » ويقول أيضاً : « ان دعايتنا تشتمل بالضرورة على نشر الالحاد » ويقول أيضاً : « يجب أن يكون الماركسي مادياً أي عدواً للدين ولكنه مادي جدلي أي يستهدف النضال ضد الدين لا النضال النظري المجرد ولكن على صعيد النضال الطبقي، البروليتاريا العدد ٤٥ /١٣/٥/١٩٠٩ ؛ والحياة الجديدة العدد ٢٨/٣/١١/١٩٠٥ » وتفسير الدين نفسه في الماركسية يحدد موقفها منه فهو مظهر عجز الانسان الابتدائي أمام الطبيعة وهو في زعمها نقيض العلم وفلسفة موضوعة لمصلحة الطبقة المستغلة . ←

إن أهم ما يتوقف عليه حل مشكلاتنا والخروج من الأزمات الماثلة في حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وأخطر ما يتوقف عليه كياننا ونهضتنا وخلاصنا هو الإسراع في تصفية مرحلة التلفيق والتبعية وتعميم وعي المرحلة الذاتية هذه في جماهير الشعوب الإسلامية وتعميق هذا الوعي جهد الطاقة في الأوساط الخاصة. وإذا تم ذلك فستنهار جميع النظم العَقَدية والفكرية والاجتماعية السياسية والاقتصادية والفنية المتصفة بالتقليد والتبعية، وستتهاوى أصنامها وتتساقط شعاراتها أمام وعي الجماهير المسلمة لذاتية الإسلام في هذه المرحلة الجديدة ، وستنحل بذلك مشكلات كانت مستعصية وتنفرج أزمات لم يجد الناس لها مخرجاً ، وسيجد الشعب العربي يومئذ وحدته الضائعة سواء أرضي الحكام أم لم يرضوا وستقف معه ومن حوله الشعوب المؤمنة بالإسلام إيماناً واعياً شاملاً أمام المعسكرين العالميين الديمقراطي الغربي والاشتراكي وأمام حضارتهما المادية المشتركة متحدياً على مستوى الأنداد . ولن يكون هذا العالم الإسلامي الجديد معسكراً ثالثاً أبداً لأنه لا يؤمن بالمعسكرات المغلقة المتصارعة ولكنه سيكون صعيد الحضارة الإنسانية المرتقبة المفتوح للإنسانية كلها

← ان هذه المواقف الثلاثة المختلفة أملاها جهل الاسلام ومعرفته معرفة سطحية ومشوهة وقياسه على غيره من الأديان والاستسلام لتلك الفلسفات والمذاهب المذكورة والانحصار الضيق المتعصب في اطارها والانغلاق دون غيرها من النظرات .

وستكون قوة التقدم الآلي وسائر مكاسب الحضارة المادية خادمة لهذه الحضارة لا موجهة لها .

يجب أن تزول نهائياً من الأذهان تلك الصورة المزورة التي يسودها الاستسلام والتواكل والسلبية ، والتي يقدمهـــا — على انها هي الإسلام أو يظنها كذلك —بعض الأدباء والساسة . فإن مجرد تقديم هذه الصورة المنقولة عن عصور الانحطاط الماضي على انها هي الإسلام يحلل صاحبها بعار الجهل وفضيحته ، أو يكشف مستور حقده وضغينته على الإسلام فهو أحد رجلين صديق جاهل أو عدو ماكر حاقد .

ان من أولى مهمات حملة الفكر الإسلامي في هذه الفترة من حياتنا الكشف عن ذاتية الإسلام وتحرير المجتمع الإسلامي من التبعية الفكرية من جهة ومن التلفيق من جهة أخرى بغية تصفية هذه المرحلة . فإنهم قـد عانوا هم أنفسهم هذه التجربة ومروا غالباً بهذه المراحل وكانت مهمة سابقيهم من رواد الفكر الإسلامي في الجيل الماضي بحكم ظروف التاريخ مهمة التوفيق ، فمهّدوا لهم الطريق ليستقبلوا مرحلة جديدة ، هي مرحلة التحرر من التبعية والتلفيق سلبياً واثبات الذاتية ايجابياً . لقد تتلمذ حملة الفكر الإسلامي في المرحلة الأخيرة ، على سلفهم من أمثال الأفغاني ومحمد عبده وفريد وجدي وشكيب أرسلان وعبد العزيز شاويش وأمثالهم ، لا ليكونوا صورة عنهم بل ليكملوا ما بدأوا به وليتجاوزوا الهدف الذي وصلوا إليه بل

ليصححوا أحياناً ويسددوا وللتاريخ أن يكشف عن قيمة عمل أولئك السابقين من حيث التوفيق في اصابة الهدف والاخلاص في الغاية والسداد في الخطة كما سيحكم على من بعدهم كذلك .

ان الأبحاث التي سيجدها القارىء في هذا الكتيب تنظمها الفكرة التي عبرت عنها في هذه المقدمة — فكرة ذاتية الإسلام — على اختلاف مجالات تطبيقها في الموضوعات المختلفة وهي بالنسبة الى خطوات سِرْتُها ، وتجارب فكرية عانيتُها، خلال عشرات السنين انتهت بي الى هذه المواقف . فقد أتيح لي أن أعيش طفولتي في أجواء المجتمع الإسلامي المحافظ في مدينة دمشق وان انهل في آن واحد في عهد حداثتي من الثقافتين الثقافة المسماة بالحديثة أو العصرية في مدارس الحكومة — الابتدائية والثانوية [1] وكانت يومئذ مقتبسة من المنهج الفرنسي مع غلبة الروح العربية عليها — وفي حلقات العلماء إذ أتيح لي أن أصاحب بضع سنوات شيخ علماء الشام يومئذ الشيخ محمد بدر الدين الحسني المشهور بالمحدث الأكبر [2] وإن أقرأ عليه في خلال الفترة

(١) وذلك ما بين ١٩٢٠ — ١٩٣٢ .

(٢) توفي رحمه الله في صيف عام ١٩٣٥ وكان محيطاً بجوانب الثقافة الاسلامية كلها حتى العلوم المادية منها ولكن شهرته كانت في الحديث وكان كثير العبادة معتزلاً للناس قليل الكلام لا يشتغل إلا بالعلم والعبادة كثير الحض على جهاد المستعمرين أيام الفرنسيين يعلن ذلك في دروسه العامة وكان على صلة ببعض قادة الثورة السورية وكانت له هيبة عظيمة عند جمهور [illegible] وعند الحكام . (راجع ترجمته في مجلة حضارة الإسلام) .

(١٩٢٦ – ١٩٣٤) في دروس عامة وخاصة الكثير من كتب الثقافة الإسلامية في شتى العلوم كالتفسير والحديث وأصول الفقه والفرائض والنحو والمنطق والتصوف والحساب والجبر والهندسة والفلك وهذه العلوم الأخيرة في مصادرها العربيـة القديمة طبعاً .

كما قيض لي أن أقرأ على والدي رحمه الله [١] وكان من أشهر شيوخ اللغة في بلاد الشام في مثل شروح المعلقات ولامية العرب والمقصورة الدريدية ومقامات الحريري وغيرهـا إلى جانب المذاكرات العلميـة المتنوعة . ثم درست الحقوق في الجامعة السورية (١٩٣٢ – ١٩٣٥) وأتيح لي أن أتوسع ، في دراستي الشخصية ، في دراسة الفقه وخاصة على المذهبين الحنفي والمالكي . ثم أتيح لي أن أدرس في جامعة باريس الأدب والاجتماع خلال سنوات ثلاث (١٩٣٥ – ١٩٣٨) فتحت أمامي آفاق الثقافة الغربية التي كنت كذلك ملماً بها ومطلاً عليها . وكنت أحضر إلى جانب ذلـك في مختلف ندوات العلم والسياسة في باريز فقد استمعت إلى موريس توريز

(١) هو عبد القادر بن محمد المبارك الجزائري الحسني توفي سنة ١٩٤٥ م وكان رحمه الله لغوياً من الطراز الأول وصاحب ملكة في العربيـة وراوية على القديم ولا سيما الشعر الجاهلي مولعاً بغريب اللغة كما كان واسع الاطلاع على تراجم الرجال بوجه عام والصحابة ورجال السيرة بوجه خاص . (راجع ترجمته في كتاب مكتب عنبر للاستاذ ظافر القاسمي طبع المكتبة الشرقية في بيروت وفي مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٦) .

الزعيم الشيوعي كما استمعت إلى أسقف باريس وخطيبها المشهور الكردينال فردبية ، وأصغيت إلى بول فاليري الشاعر المشهور كما أصغيت إلى الكاتب الكبير اندره موروا، وشهدت روايات موليير وراسين في المسرح الكلاسيكي كما شهدت تمثيل رواية الأم لمكسيم جوركي في المسرح الشعبي . وهنـــاك في باريس عرفت الأمير شكيب أرسلان رحمه الله وجالسته واستمعت إليه، كما عرفت عن قرب حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبعض كبـــار رجالهم ، وجمهور العمال الذين كانوا ملتفين حولهم . فضممت إلى ما كنت أعرفه عن الجزائر – وكنت متتبعاً لأوضاعها – الشيء الكثير عـن حركاتها ورجالها .

عدت من باريز في أواخر عام ١٩٣٨ حين كانت الأحداث تتمخض عـــن الحرب العالمية الثانية وقضيت خمس سنين في التدريس في وزارة التربية وسنتين في التفتيش الاختصاصي وعضوية لجنة التربية والتعليم التي كانت يومئذ اللجنة الفنية العليا لوزارة التربية وعهد إلي يومئذ بوضع مناهج تدريس اللغة العربية والدين للمدارس الثانوية (١) فوضعتها على أسس تختلف اختلافاً كبيراً في المادتين عمـــا كانت عليه سابقاً ولا تزال هذه المناهج معمولاً بها بعد أن عدلت بعض التعديلات خلال هذه المدة .

---

(١) وكان ذلك إثر جلاء الجيوش الأجنبية ١٩٤٥ وقيـــام حكومة وطنية بعد الاستقلال التام قامت بتبديلات أساسية في الخطط والمناهج وفي الجهاز الفني للتعليم .

ثم انتقلت إلى ميدان آخر هو الميدان السياسي فسلخت فيه إحدى عشرة سنة (١٩٤٧ – ١٩٥٨) كنت خلالها نائباً منتخباً عن مدينة دمشق في ثلاث مجالس نيابية متعاقبة كان أحدها جمعية تأسيسية وضعت دستوراً للبلاد (دستور ١٩٥١) واشتركت خلال ذلك في الوزارة فتوليت وزارة الأشغال العامــة والمواصلات (١٩٥٠) ثم وزارة الزراعة (١٩٥١) وأتيح لي في هــذا المجال ان أعرف عن كثب مشكلات المجتمع وأن أعرف الهيئات والأحزاب والتيارات المختلفة .

وكنت في الفترة نفسها اشتغل بالتدريس الجامعي بصفة محاضر في كلية الآداب أدرس فقه اللغة والدراسات القرآنية ثم عينت أستاذاً في كلية الشريعة (١٩٥٥) ثم رأيت العزوف عن السياسه والانصراف الكامل للعمل الفكري والجامعي لأسباب كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها وأهمها كثرة التقلبات السياسية ومفاجآتها في سورية والشعور بالحاجة إلى تكوين وعي إسلامي يسبق العمل السياسي ليستند إليه ويستظهر به.

وأتيح لي في المجال الفكري والجامعي أن أعمــل في التخطيط الجامعي للدراسات الإسلامية فاشتركت في التخطيط لكلية الشريعة بجامعة دمشق ثم في التخطيط للأزهر بتكليف شخصي من رئيس المجلس التنفيذي (مجلس الوزراء) للجمهورية العربية المتحدة فوضعت تقريراً في أسس التطوير ثم اشتركت

بعد ظهور القانون في وضع خطط كليات الأزهر . (١٩٦٠) واشتركت بعد ذلك في وضع نظام الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وخططها ومناهجها بصفتي عضواً في مجلسها الاستشاري الأعلى وفي كلية الشريعة في مكة وأخيراً في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان . كما دعتني جامعة طهران في زيارة لايران فسحت لي المجال للاطلاع على معالم الثقافة الإسلامية فيها فاطلعت على كلية المعقول والمنقول (أصبحت تسمى الآن كلية الالهيات والثقافة الإسلامية) وعلى بعض جوانب الثقافة في الجامعة الإيرانية وأتيح لي كذلك أن أزور الباكستان مرتين وبورما وتايلند والملايو وسيلان والصومال واتصل بالشعوب الاسلامية فيها .

وهكذا تهيأت لي الفرصة للاستمرار في البحث والاتصال بالبيئات الإسلامية المثقفة في عدد من البلدان العربية والإسلامية.

ان هذه التجربة التي أوجزتها للقارىء إنما أردت من عرضها بيان الصلة بينها وبين أفكاري التي أقدمها له فهي ليست أفكاراً « باردة » ولدت بين الكتب والأوراق في غرفة مقفلة ولكنها أفكار عشت في أجوائها الحية ، لابست حياتي ، وخامرت عقلي وقلبي ، ونفذت إليّ من خلال هذه النوافذ المتعددة التي أطلت منها على الحياة والمجتمع والعالم . وإني أقدم هذه الأبحاث لجمهور المثقفين من أبناء الشعوب الإسلامية وفي مقدمتها الشعب العربي عسى أن يجد فيها ما يدفعه بقوة

نحو هذه المرحلة الجديدة التي نستقبلها رجاء أن يخلف قادة الفكر والسياسة — الذين يمثلون مرحلة التبعية والذين هم نهاية لمرحلة لا بداية — جيلٌ جديد من القادة يمثلون المرحلة المقبلة (مرحلة التحرر والذاتية) كما خلف أولئك القادة الجيل السابق الذي كان يتصف بالمحافظة على ما كان بخيره وشره .
لقد آن ان ينتهي بريق عهد التبعية وشعاراتها ، وان تنتهي فتنتها وغرورها . لقد بدأ هذا البريق يخبو نوره عند أصحابه الأصليين ، وفي ينابيعه ومناجمه ، ولكنه لا يزال يلمع عندنا كالنجم الذي انطفأ ولكن نوره — الذي يحتاج الى زمن ليصل الى الأرض — لا يزال يسري وليس وراءه شيء كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً .

ان انتصارنا في معاركنا مع الصهيونية ومع غزاة الأرض والثروة والفكر من جميع أمم الأرض التي لا تؤمن إلا بالمادة والمنفعة على اختلاف مذاهبها المشتركة في الباطل ان انتصارنا في جميع هذه الميادين في فلسطين وكشمير وعمان والصومال واريتريا وزنجبار وبخارى وطشقند والصين و ... و ... وكل بلد أظله الإسلام بظله ثم عدَت عليه العوادى وآل الحكم فيه لغيره فأصبح محكوماً بعد ان كان حاكماً وغدا أهله تابعين بعد ان كانوا حاكمين . وانتصارنا كذلك في معاركنا في الداخل للتغلب على المظالم والمفاسد وعلى الضعف والتخلف كل ذلك مرهون وموقوف على تحررنا من التبعية الفكرية والسياسية

وتوحدنا على صعيدنا الذاتي حيث تجتمع المثل العليا والمبادىء السامية وحيث لا يكون الإنسان عبداً لا للكبراء والزعماء ولا للجماهير والدول ولا لأي أحد يزعم لنفسه انه خليفة الله في الأرض، ويكون التنظيم الفني بعد ذلك والتصنيع الحديث والتعبئة المادية بوجه عام قوة لا بد منها لخدمة تلك الغاية وتحقيقها .

سدد الله خطانا ووفقنا للوصول الى الأهداف الخيرة وجمع شملنا عليها لنحقق الخير والسعادة لنا وللإنسانية جمعاء .



نحو حضارة إنسانية

مقاييس الحضارة

يقصد بالحضارة مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنيه وسائر مظاهر الحياة الماديةوالمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعباً أم أكثر .

وكل حضارة من الحضارات هي نتيجة جهود سابقة بذلتها أجيال من البشر خلال عصور عديدة متطاولة، ولكل حضارة صورة ظاهرة هي نتاج الجهود الماضية تجمعت في وقت من الأوقات ، ولها كذلك صورة كامنة هي إمكانياتها التي لم تتحقق بعد ، واتجاهاتها وأهدافها فقد تكون الحضارة في حالتها الحاضرة جميلة رائعة، ولكنها تؤدي باتجاهاتها، وتوصل بدوافعها إلى التردي والتقهقر والخراب ، وتحمل في ثناياها بذوراً فاسدة لا تبدو في الحاضر نتائجها .

فما هي المقاييس التي نقيس بها صلاح الحضارة أو فسادها وخيرها أو شرها ونتائجها السعيدة أو المشؤومة ؟

إن من العسير بل من الخطأ أن نقيس من جانب واحد وبمقياس واحد . وذلك أن غاية الحضارة الإرتفاع بالحياة الإنسانية، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب ، فإن فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية عملية معاشية ، وحياة نفسية خلقية ، وحياة اجتماعية ، إلى جانب الحياة الفردية .

والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع ، بهذه الجوانب كلها وتعدل بينها ، فلا يظلم جانب منها جانباً ، ولا ينمو واحد ويضمر آخر .

إن الحضارة الصالحة هي التي تفسح المجال لنمو العقل وتفتحه واكتشافه آفاق الوجود ، فتزيده علماً ومعرفة نافعة، وهي التي تزيد من قدرة الإنسان على السيطرة على الطبيعة ليستثمرها لنفعه بعد أن يتحرر من سلطانها ، فترفع بذلك من مستوى حياته ، وتحقق له الكثير من رغباته ، وتزيد من سعادته ، وتسهل أمر معاشه ، وهي التي تمكنه من سيطرته كذلك على نفسه ، وعلى غرائزه وأهوائه ، وتفسح المجال أمام نفسه وروحه كما فسحت المجال أمام عقله لترتفع في آفاق أسمى ولتتغير من ابتدائيتها وحيوانيتها ، فتنمي فيه الإيثار والبذل مكان الأثرة والشح، وتجعل هدف الإنسان الخير لنفسه وغيره لا لتحقيق اللذة والاستئثار والوصول إلى المراتب .

والحضارة الصالحة هي الـتي تزيد من تماسك الأفراد في المجتمع وارتباطهم وتضامنهم وتكافلهم سواء من الوجهة المادية الظاهرة أم من الوجهة النفسية والعاطفية . وذلك بتحقيق المساواة في الفرص والمجالات والعدل في توزيع الحقوق المادية والمعنوية والرحمة في نيل الضعفاء من حق الحياة ما لا ينالونه بقوتهم وجهدهم .

والحضارة الصالحه هي الـتي تحقق الأهداف المذكورة ارتفاعاً وعلواً ، أي في أعلى درجة ممكنة وتحققهـا انتشاراً واتساعاً ، أي أن تشمل بتحقيقها أكبر عدد من البشر بأن تنتشر في جميع أفراد شعب من الشعوب ، بقدر إمكانياتهم ، وأن تنتشر كذلك في أوسع نطاق ممكن في شعوب الأرض فقد تحقق بعض الحضارات النبوغ الفكري أو المعيشة الرخية، أو السمو النفسي لطبقة خاصة من الناس ، وتحرم منها طبقات أخرى تستطيع الوصول اليها .

إن الحضارات تختلف كذلك باختلاف ما تضعه من أهداف تريد بلوغها ، وما تؤمن به من مثل ومعتقدات، فإن الأهداف والمثل والمعتقدات قد تكون فاسدة ، فتتجه بالحضارة نحو الفساد أي نحو الانحطاط الفكري أو المعاشي أو الخلقي أو الاجتماعي .

وان للحضارة دوافع ومحركات هي التي تدفع الناس إلى بلوغ الأهداف ، وتحقيق المثل ومثال ذلك أن يكون الناس

مدفوعين إلى التعلم بدافع الحصول على المال ، أو إلى الحرب بدافع الاستيلاء على أرض غيرهم وأموالهم ، أو أن يكونوا مدفوعين إلى ذلك بدافع حب العلم أو إزالة الظلم أو إرضاء الله.

تلك هي مقاييس الحضارة: رفع مستوى العقل والنفس والعيش والتضامن الاجتماعي والشمول ، أو سعة الأفق والارتفاع أو العلو وسمو الأهداف ، وصحة العقائد وصلاحها وسلامة الدوافع وحسنها .

الحضارة الحديثة

إن الحضارة الحديثة التي نعيش في ظلها في الوقت الحاضر، هي ثمرة جميع الحضارات التي سبقتها ، وأبرزها اليونانية التي تفتحت فيها البذور الأولى للعقل ، والمسيحيه التي ربيت فيها النفس وهذبت العواطف والغرائز ، والإسلامية التي أنمت نمو العقل وفسحت أمامه الآفاق وارتقت بالنفس ضمن شروط الحياة وظروفها ورفعت مستوى التضامن الاجتماعي ووسعت دائرته في شعوب كثيرة .

إن الحضارة الحديثة ورثت تركاً ضخمة غنية فنمتها من بعض جوانبها ولكنها أضعفتها في جوانب أخرى غدت ضامرة هزيلة .

لا شك أن الحضارة الحديثة فتحت للعقل الأبواب وفسحت المجال واسعاً وأكملت في الجانب المادي ما بدأت به الحضارة

العربية الإسلامية وزادت المعلومات البشرية وخاصة في موضوع الطبيعة زيادة هائلة حقاً تدل على عظم الطبيعة وتدل أكثر من ذلك على عظم خالقها واستطاع الانسان بهذه المعلومات أن يسيطر سيطرة كبيرة على جزء من الطبيعة وهو جزء صغير جداً مع ذلك وليس له في هــذا إلا فضل اكتشاف أشياء موجودة فتتحرر بذلك تحرراً كبيراً من سلطان الطبيعة عليه .

ورفعت الحضارة الحديثة من مستوى رفاهية الإنسان وهيأت له وسائل الراحة في مأكله ومسكنه وتنقله ومواصلاته ومخابراته ووقايته ونوعت وسائــل تلبية رغباته وملذاته وابتكرت له أنواعاً جديدة من الملاذ ويسرت له تحقيقها .

ورفعت الحضارة الحديثة من قوة الارتباط والتضامن الاجتماعي ضمن إطار الشعوب بحيث يتمتع الفرد في داخــل المجتمع بشيء كثير من الطمأنينة المادية والضمان الاجتماعي بما سنت من نظم وقوانين وضمنت كثيراً من حقوق الفرد المادية والمعنوية ولكن في نطاق الشعب الواحد والدولة الواحدة .

لقد استطاعت الحضارة الحديثة أن تسمو كثيراً في الارتفاع فأوجدت نبغاء عظاماً في الفكر أو بعض نواحيه على الأقل ومرفهين إلى حدود من الرفاهيه التي هي أقرب إلى الخيال .

ولكن نقص الحضارة الحديثة يبدو في عدة أمور :

أولها : إن دائرة تحقيقها لبعض أهدافها ضيقة فبينما نجد

أن الحق في مجتمع معين كالمجتمع الانكليزي مثلا ، يُضمن إلى حد كبير، نجد الانكليزي نفسه ينتهك هذا الحق ولا يقره في مجتمع آخر يعتبره دونه . فلا يزال الظلم والغضب والقتل قانوناً سائداً بين الشعوب ، ولا يزال كذلك التعذيب والقمع وسلب الحريات سائداً كذلك في داخل بعض الشعوب الأخرى التي تمثل أرقى ما وصلت اليه الحضارة الحديثة من الوجهة المادية .

وأهم نقائص الحضارة الحديثة أنها لم تبذل أي عناية في تهذيب النفس البشرية. انها لم تستطع أن تخفف ما في الإنسان من أثرة وحب للذات واستئثار على غيره ، وطمع في كل لذة وشهوة في الجاه والمنصب وحب الاستعلاء وغير ذلك من الأهواء والعواطف والانفعالات التي تقف في سبيل نمو الحضارة وتضعف البشر وتحول دون ارتقاء النفس البشرية ذاتها .

انها لم تستطع أن تزيد من حساسية الضمير البشري حتى يغضب للحق ويثور على الظلم ويغار على انتهاك الحرمات لم تستطع أن تقوي فيه عاطفة الإيثار والرحمة والنداء والتحرر والاخلاص ولئن كانت حررته إلى حد كبير من سلطان الطبيعة فإنها لم تستطع أن تحرره من نفسه مع أن نفسه جزء من هذه الطبيعة . إنها أخفقت في هذا الميدان أيما اخفاق وبذلك لم تستطع الحضارة الحديثة أن تؤمن التوازن بين الناحية الفكرية والناحية الخلقية فحدث الاختلال والاضطراب .

ان دوافع هذه الحضارة ليست دوافع سليمة مبرأة بل هي في كثير من الأحيان دوافع غير أخلاقية انها كلها دوافع مادية للحصول على علم أكثر وللحصول على انتاج أكثر ورفع الحياة المادية إلى مستوى أعلى وتأمين أكبر عدد من الرغبات التي أكثرها مادي . ليس الانسان أنى كان وأياً كان لونه وجنسه من بني آدم غاية هذه الحضارة وإن كان يستفيد منها وليس الإنسان في جميع جوانبه ونواحيه موضع اهتمامها .

وهكذا ارتقت الحضارة الحديثة ببعض جوانب الحياة الإنسانية وأغفلت جوانب أخرى في غاية الخطورة والقيمة فأدى ذلك إلى اضطراب شديد في حياة الإنسان وجعل سير الحضارة في تطورها متجها إلى أهداف ضارة سيئة رغم ما وصلت اليه من سعة في العلم والكشف عن مجاهيل الكون وارتقاء في الصناعة وكثرة الانتاج وارتقاء في مستوى العيش ووسائل الرفاهية . وقد عجزت هذه الحضارة الحديثة عن تهذيب النفس الإنسانية وتحقيق الرابطة الأخوية بين البشر وتعميم مبادىء الحق والعدل في العالم . ولم تسلم في دوافعها من الأهداف المادية الضيقة فلم ترتق في غاياتها كما ارتقت في وسائلها فبقي التفاخر والتكاثر والتزاحم والتغالب على المال والقوة واللذة والملك والسلطان أبرز حوافز الإنسان في علمه وعمله وكسبه ومعاملته .

دور الحضارة الاسلامية :

إن من حسن الحظ ان الحضارة الاسلامية قد تفوقت في

النواحي التي أغفلتها الحضارة الحديثة وأهملتها ذلك أن جوانب النقص في هــذه الحضارة هي نفسها الجوانب الكاملة وغير المستثمرة في حضارتنا الإسلامية السابقة . وهي كذلك التي لم تستطع الحضارة الحديثة ان تسبق فيها حضارتنا بل أن تبلغ مستواها . إن تغيير النفس البشرية وتهذيبها وتوجيهها وشق الطريق لارتقائها من أبرز وأخص نتائج حضارتنا . إن توسع أفق الحضارة في العالم وشمولها لعدد أكبر من الشعوب بتزايد مستمر وسمو الدوافع المحركة للسير لتتقدم في جميع الآفاق من خصائص حضارتنا التي لم تسبق في هذا العصر. هذا مع ملاحظة أن الجوانب التي عنيت بها الحضارة الحديثة وازدهرت فيها لم تكن مغفلة ولا مهملة في الحضارة الاسلامية بل كانت تأخذ مكانها إلى جانب النواحي الأخرى بانسجام وتناسق .

فالحضارة الاسلامية أحلت العقل محله وفسحت المجال أمامه للنظر في ملكوت السموات والأرض والتفكير فيما خلق الله فيها والبحث عن الحقيقة بطريقة تتصل بالواقع المحسوس وتبدأ منه وتختلف عن طريقة اليونان الميتافيزيكية الغيبية التي تتجاهل الواقع في كثير من الأحيان .

هذا وان ثمه عقبات حالت ولا تزال تحول دون استفادة الانسانية من الحضارة الإسلامية التي يمكنها أن تتدارك ما في الحضارة الحديثة من نقائص وتحتفظ وتنمي ما فيها من مكاسب ...امن ودون أخذ العرب والشعوب الاسلامية عامة بهــذه

الحضارة الإسلامية . ومن أهم هذه العقبات ما أصاب الإسلام في العصور الأخيرة من تشوه في أذهان المسلمين وانحراف عنه في سلوكهم وما شابه من شوائب دخيلة فكانت هـذه الصورة المشوهة الناقصة المغايرة للأصل هي التي علقت في أذهان أبناء الجيل من المسلمين وغير المسلمين على انهـا هي الإسلام فكانت سبباً لنفورهم وإعراضهم بل لتمردهم أحياناً وثورتهم .

ويضاف الى هذا انهم واجهوا الحضارة الغربية الحديثة منذ أكثر من قرن ورأوا جوانب القوة فيها دون جوانب النقص والفساد والتردي ففتنوا بها ومالوا اليها واقتبسوا منها مـا استطاعو اقتباسه من أشياء مادية أو أفـكار فـكان الغزو الفكري الحديث الذي أدخل في المجتمع الاسلامي مذاهب فكرية واجتماعية متعددة كما أحدث تشويهاً جديداً للمفاهيم الاسلامية أفقدها أحياناً بعض أصالتها وألبسها غـير ثوبها ، هذه هي المشكلات أو القضايا التي سنبحثها في الفصلين التاليين .

أزمة مجتمعنا وأزمة الإنسانية

إن المجتمع الإسلامي في جميع البلاد الإسلامية قد واجه الحضارة التي حملها الينا الغرب في العصر الحديث في خلال هذا القرن الماضي وهو يحمل ميراثاً مثقلا بالضعف قد خمدت فيه أنفاس الحياة إلا رمقاً قليلاً . وكان الشرق الاسلامي بعيداكل البعد عن تلك العصور الرائعة التي عرفناها في تاريخ الاسلام في عصوره الزاهرة تتدفق فيها شرايين الحياة في حضارة تقوم على الأخلاق والمثل العليا الكريمة ، وتنبسط فيها آفاق الفكر وتتفتح ثمار الثقافة وتتفجر ينابيع العم وتلتقي الأمم والشعوب على عقيدة واحدة انسانية لأهداف فتتعاون في ميادين الثقافة والتجارة وغيرها ويحمي ذلك كله دولة تقوم على أساس الشورى في الحكم والعدالة بين الناس ومسؤولية الحكام، وتعيش في ظل الحكم الإسلامي الثقافات المختلفة والديانات المتعددة .

لقد تغيرت معالم الاسلام وتطور المجتمع الاسلامي تطوراً يجافي ما للاسلام من اتجاهات ويخالف ما بني عليه من أسس.

فاستبدل بالصورة الجميلة القوية صورة مشوهة ضعيفة كانت هي الثغرة التي نفذ منها الفساد والمرض .

لقد كانت العقيدة الاسلامية - التي كانت في الصدر الأول إيماناً بالله وحسابه في حياة أخرى وجهاداً في سبيله تدفع الناس الى العمل والجهاد - ففدت جدلا وكلاما ، عند الخاصة من المسلمين يتناقشون في النظريات ويتناظرون في الآراء ، ويتعمقون في موضوعات لا تجدي قليلاً أو كثيراً . كما شابها عند العامة كثير من الاعتقادات الفاسدة والتفكيرات الخرافية المجافية لما أمر الله من النظر في أسرار الكون وأسبابه وعلله. لقد كانت عقيدة التوحيد وإفراد الله بالعبادة طريقاً مباشراً لتحرير البشر من سلطان الآلهة المزيفة والملوك المستبدين والمتمولين العاتين والأقوياء الظالمين . وكانت نقطة انطلاق لتحرير البشر من أنواع من العبوديات الفكرية والاجتماعية والسياسية ومن تسلط بعضهم على بعض ، ولإشعار الناس بالمساواة فيما بينهم باعتبار انهم كلهم عباد الله وخلق من خلقه امتازوا بكرامة الآدمية .

لقد كانت عقيدة القضاء والقدر فلسفة إقدام في الحياة (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ، فليس إقدامك على الجهاد ولا دخولك المعركة بقاتل لك اذا لم يأت أجلك. فلا تخف لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك فلن يصيبك ضرر اذا لم يرد الله ذلك . فاذا بهذه العقيدة نفسها تصبح فلسفة تواكل

وإحجام : لا تعمل فرزقك يأتيك ولا تجاهد لأن الله ينصره اذا أراد من غير جهاد ولا حرب . واذا بالزهـــد الأعجمي يطغى على الزهد الإسلامي واذا بالمسلمين ينكمشون عن السير في مضمار الحياة كما أمرهم الله أن يسيروا ويعرضون عن الأخذ بسنن الله في هـــذا الكون وهذه الحياة وتكون النتيجة أن يركد النشاط الاقتصادي في بلاد المسلمين – وان يتهيؤوا – ليصبحوا عالة على غيرهم في الصناعة والتجارة وسائر المرافق الاقتصادية .

لقد كانت العقيدة دافعة إلى الجهاد في سبيل نصرة الحق واقامة العدل في الدنيا ورفع الظلم عن المظلومين والى الاستعداد لهذا الجهاد . فاذا بها تنقلب الى استسلام مطلق لمجرى الحياة. وبعد أن كانت دافعاً الى الوقوف في وجه الظالمين من الحكام (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار)،وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، غدت تفهم على انها قبول لحكمهم،وركون الى استبدادهم . فكان للحكم في صدر الاسلام ضابط من تعاليم الاسلام يضبطه فيحميه من الطغيان والاستبداد . فأصبح بالتدريج حكماً استبدادياً لا شورى فيه للمحكوم ولامسؤولية على الحاكم . وكان الاسلام يتجلى في الحياة الاجتماعية في تشريع سداه العدالة ولحمته الرحمة . وعلى هـــذا الأساس كانت تفهم نصوصه من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ،فغدا نصوصاً جامدة ، لا ينظر إلا الى ظاهرها وشكلها مهما كانت نتائج تطبيقها ولو خالفت روح الشريعة ووقف كل واحد عند نصوص صاغها

من تقدموه ، وأصبح بين الفقيه في كل عصر وبين القرآن والسنة مصدري الاسلام الأساسيين طبقة كثيفة من النصوص تحول بينه وبينها يقف فيها موقفه من كلام المعصومين والمنزهين. فهبط الفقه الاسلامي عن مستواه الرفيع إلى نوع من النصوصية الضيقة والشكلية الجامدة. وأصبحت الخلافات الجزئية والاجتهادات الفرعية أساساً لعصبيات مذهبية فرقت جمع المسلمين وحجبتهم عن النظر العميق إلى جوهر الأشياء وإلى القضايا الرئيسية والمشكلات الكبرى في الحياة وأضعفت شعورهم بوحدة العالم الاسلامي ووحدة قضاياه ومشكلاته.

لقد ضيقت مفاهيم الاسلام الأصلية واختلت القيم والموازين واختلفت النسب التي أقامها بين نواحي الحياة من عبادة وعمل وتهذيب للنفس وتحصيل للعلم وكسب للعيش وانفاق للمال وجهاد في سبيل إقامة العدل بين الناس ، فغلبت على المسلمين جدلية اليونان في العقيدة ، وصوفية الأعاجم والانعزالية والتواكل والكسل في الحياة، واستبداد الأكاسرة، والقياصرة في الحكم وشكلية المناطقة في الفقه ، والخرافة والجمود في التفكير ، واستحكمت الخلافات المذهبية ، والعصبيات الخاصة ، وحلت الجزئيات الثانوية محل الاتجاهات العميقة والمبادىء العامة ، وضعف الوعي الاسلامي العام ، والشعور بكيان العالم الاسلامي على أنه وحدة متضامنة تنمو وتتسع لتنشر في العالم بمبادئها الأمن والسلام وفي النفس الانسانية السعادة والطمأنينة .

وانتقلت الحيوية والحركة في العالم إلى رقعة أخرى من الأرض، وحلت محل الحضارة الإسلامية حضارة أخرى مختلفة عنها في الغرب ، والتقى ذلك المجتمع الإسلامي الذي وصفناه بما فيه من ترد وضعف وتخلخل في العصور الأخيرة بالغرب وحضارته القوية الناشئة الناشطة . وإذا أردنا أن نعرف ما نتج عن هذا الالتقاء من تفاعل ومـا نجم من نتائج وآثار ، وجب علينا أن نعرف خصائص هذه الحضارة الغربية، وصفاتها بمحاسنها ومساوئها .

الحضارة الحديثة (الغربية) :

ان الحضارة الحديثة تكونت في رأينا من عناصر ثلاثة تفاعلت وتمازجت خلال حقبة من الزمن وأنتجت ما نسميه اليوم بالحضارة الغربية أو حضارة العصر الحديث . وهذه العناصر هي :

أولاً – ميراث الحضارة اليونانية والرومانية وهو ميراث تغلب عليه المادية التي تجلت في الفتوحـــات الاستعمارية ، والديانات الوثنية عند الرومان . وفي الفلسفة اليونانية المستندة إلى العقل والمادة والأدب اليوناني بما فيه من عناصر الصراع والحروب والتنافس والتمتع بالملذات .

ثانياً – الجانب المادي من الحضارة الاسلامية فقد اقتبس الغرب من الحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس على الخصوص الناحية المادية من هذه الحضارة كالعلوم المادية التي

ترجمت مؤلفاتها الى اللاتينية ، والـتي درسها بعض رجالات أوربا في مدارس الأندلس وصقلية وكالحياة الاجتماعية التي كانت راقية من الوجهة المادية كذلك .

وأما فلسفة الإسلام أو العقيدة الاسلامية والقيم الاخلاقية التي جاءت بها الحضارة الاسلامية فلم يأخذ الغرب شيئاً منها . وأما ما أخذه من الفلسفة الـتي سميت اسلامية خطأ ، فهو ذلك التفكير اليوناني الذي امتد أثره ودخل في الحضارة الاسلامية .

ثالثاً — المسيحية وهذه المسيحية التي انتقلت الى الغرب مزيج من تعاليم المسيحية الأولى الاعتقادية والخلقيـة والفلسفة اليونانية والشعائر الرومانية .

لقد كان من نتائج هـذه العناصر تلك النهضة الفكرية التي ظهرت في الغرب في القـرن الثاني عشر والثالث عشر . واختمرت في القرنين السابع عشر والثـامن عشر فكانت الاكتشافات العلمية التي أنتجت الصناعة الآلية الكبرى والرأسمالية والفتوحات الاستعمارية ، وكان من بعـدها الثورات الشعبية والانظمة الديموقراطية والتنافس بين القوميات والصراع بـين الطبقات والثورات الاشتراكيـة ، وما رافق ذلك كله من نهضات فكرية واكتشافات علمية واختراعات عملية كثـيرة متنوعة . وما صيغت فيه هذه الحضارة أخـيراً من مذاهب اجتماعية وسياسية .

لا شك أن حضارة الغرب في العصر الحـديث حلقة من

حلقات تاريخ الحضارة البشرية تجمع فيها نتاج الحضارات السابقة في سائر نواحي الحياة . ولكن لها خصائصها وصفاتها ومحاسنها ونقائصها ويمكننا أن نوجزها فيما يلي :

١ – لقد بلغ **العقل** البشري في ارتقائه مستوى عالياً . وسار في اكتشاف آفاق الكون أشواطاً كبيرة ووصل الى درجة من المعرفة الاختصاصية في كل ناحية من نواحي الكون والطبيعة لا مجال لمقارنتها بالمعرفة التي بلغها في الماضي .

ولكن هذا التقدم الفكري رافقه **غرور العقل** بنفسه وانتقل الناس من ظلم العقل وكبته في العصور الوسطى الى **تقديسه** وتأليهه وأدى ذلك الى **اعلاء القيم العقلية على حساب القيم الخلقية والروحية وتنمية الملكات العقلية دون العناية بالتربية الخلقية والروحية .**

٢ – ومن مظاهر الحضارة الحديثة **التقدم الصناعي** الذي نشأ عن التقدم العلمي . وأدى الى ازدهار الحياة الاقتصادية ونشاط الحياة الصناعية والتجارية والى ارتفاع مستوى المعيشة **وارتقاء وسائل الرفاهية** . ولكن ذلك أدى في الوقت نفسه الى **التنافس** على الكسب **والصراع بين الطبقات** من أجل الثروة وسيطرة حب الرفاهية ولذة العيش على أفراد الناس والى **التنافس بين الدول والأقوام** على كسب النفوذ وفتح البلدان والاستيلاء على ثرواتها وفتح الأسواق الخارجية لاستهلاك منتجاتها وكان

الاستعمار بحروبه وفظائعه ومآسيه ومخازيه وبسط نفوذ الدول القوية المصنعة والاستهانة بمبادىء الأخلاق والمثل العليا في سبيل الشهوات والمكاسب الفردية والانتصارات القومية وتسلط الشعوب على الشعوب .

٣ — ومن مظاهر الحضارة الحديثة تحرر الشعوب داخلياً من الأنظمة الاستبدادية الجائرة وقيام ثورات وحركات في داخل كثير من البلدان لتقويض تلك الأنظمة وإقامة أنظمة تكفل فيها حرية الناس والمساواة بينهم . وذلك بفصل السلطات وتكوين مجالس يمثل فيها الشعب وإعلان دساتير ينص فيها على حقوق الحاكم والمحكومين وواجباتهم . ولكن هذا كله إنما حدث في داخل الدول الكبيرة وفي الوقت الذي كانت تعلن فيه الحريات والأنظمة الديموقراطية كانت الحروب الاستعمارية في الخارج مستمرة وظلم الشعوب القوية للضعيفة واغتصاب بلادها وثرواتها واستعباد أهلها ظاهرة فاشية عامة في العالم وكان للأخلاق وللعدالة والحرية والمساواة مقياسان أحدهما لأبناء الجنس والآخر للغرباء الأجانب .

٤ — ومن أعراض هذه الحضارة أيضاً تزعزع الأسس الاعتقادية القديمة والقيم الأخلاقية في المجتمع ، ذلك أن المسيحية ، وهي العقيدة التي كانت سائدة في الغرب بشكلها وصيغتها التي انتهت إليها ، لم يكن بإمكانها ولا من طبيعتها أن تتلاءم مع الحضارة الجديدة ، لا من

الوجهة العقلية ولا من الوجهة الأخلاقية السلوكية .
كما أنها لم تستطع أن تقدم حلولاً للمشكلات الفكرية والاقتصادية والسياسية التي عرضت للمجتمع .

وبانهيار العقائد والقيم الخلقية والروحية القديمة انفسح المجـال لظهور مذاهب جديدة في العقيدة والأخلاق والسياسة تحل محلها ، وكانت المذاهب المادية والعلمية والمادية التاريخية والاشتراكية والديموقراطية والقومية وغيرها .

٥ - إن هذه الحضارة الحديثة إلى جانب مـا حققت من خطوات تقدمت فيها البشرية تقدماً رائعاً في مجـالات الاكتشاف والبحث العلمي والصناعة الآلية ووسائل العيش الرغيد ، وتعميم المرافق والمنافع والمساواة بين مختلف الطبقات اقترنت بنقائص أساسية ومساوىء فاضحة أبرزها :

التنافس الاستعماري والصراع بين الأقوام وظلم الطبـقات والأفراد بعضهم لبعض . وغلبة الاثرة والأهداف المادية على النـاس أفراداً وجمـاعات وضعف الوازع الخلقي والضمير وتزعزع القيم ، واضطراب العقائد والقلق الروحي وإهمال المواهب والملكات الروحية في الإنسان وتسخير العلم لغايات مادية غير أخلاقية وحصر الاصلاح الاجتماعي حين يكون إصلاح ، بالنواحي الاقتصادية وحدها . وبالجملة ارتقاء

الوسائل دون الغايات والأهداف كل ذلك لسبب أساسي هو أن هذه الحضارة لا ترتكز على تصور صحيح لحقيقة الكون والانسان والحياة. فتهمل في الانسان مواهبه الروحية وطرق المعرفة المتصلة بها . كما تهمل صلة الانسان بخالق الكون فتنسى الله بل تجحده وتنكر مسؤولية الانسان أمامه وتتنكب طريق المصلحين الروحيين من الأنبياء والمقتفين لآثارهم.

التقاء الشرق بالغرب :

لقد انتقل مركز الثقل في التقدم والحضارة والنشاط والفعالية في شتى آفاق الحياة من الشرق إلى الغرب ، وظهر ذلك بوضوح في القرن السابع عشر للميلاد وما بعده ثم كان بين العالمين والحضارتين اتصالات سلمية وغير سلمية عن طريق تجارة أو الثقافة أو الحرب أو الاستعمار والاحتلال . وكان من نتيجة هذا الالتقاء تأثر الشرق بالغرب وأخذ الكثيرون معالم حضارة الغرب وصفاتها سواء أكانت حسنة أم سيئة .

وكان من الطبيعي أن تكون نتيجة التقاء الشرق الإسلامي بتركته المثقلة وحالته التي آل اليها ، غلبة الغرب على الشرق . سواء من الوجهة العسكرية والسياسية أو من الوجهة الفكرية والاجتماعية . وهكذا تجلى غزو الغرب المشرق في نوعين من الغزو ، أحدهما **الاستعمار** أي الاستيلاء على البلاد ومرافقها وعلى الحكم فيها . وثانيهما : **الغزو الفكري والاجتماعي** .

وان من سنن الله في هذا الكون ان تغلب القوة الضعف ،

والعلم الجهل والعـدل الظلم والنظام الفوضى والحرية الاستبداد والعمل الكسل .

١ – فقد غزا التفكير العلمي والنهضة الفكرية الحديثة الركود والجمود والخرافة التي كانت من مظاهر التفكير في الشرق الإسلامي . فقامت في الشرق نهضة علمية وجدت وعياً فكرياً ، ولكن رافقها نظرات مادية ومذاهب إلحادية انتقلت من الغرب مع هذه النهضة .

٢ – وانتقلت النهضة الاجتماعية من الغرب إلى الشرق سواء من الناحية العمرانية ووسائل المواصلات والعادات. وحل الكثير من ذلك محل الطرائق القديمة في الحياة . وأخذهذا التبدل يعم الطبقات وينتشر في مختلف البيئات وأصبح تحسين مستوى المعيشة ، وتأمـين الرفاهية واتخاذ وسائلها غاية أساسية لدى جميـع الطبقات .

٣– وحلت الفعالية الاقتصادية الجديدة محل الضعف والتوا كل والانعزالية التي فشت في الشرق الإسلامي منـذ ان دست على الاسلام وانتشرت فكرتها وعم البلاء بها . فقامت في الشرق نهضة صناعية ونشطت التجارة بينه وبين الغرب، ودبت الحركة في عروق المجتمعات حتى احتلت القيم الاقتصادية والمالية المكانة الأولى في الشرق

٤– واستغل الغرب ضعف الشرق، ودفعته دوافع الكسب

والمال الى الغزو والاحتلال ، بعد أن ضعفت روح الجهاد في الشرق الإسلامي وغم الاستعمار جميع بلاد الشرق ، وحكمتها الدول الأجنبية الغربية .

٥ – وانهارت أنظمة الحكم الاستبدادية والفردية المطلقة أمام الأنظمة الغربية المبنية على أسس شعبية وثورية فأحدث ذلك وعياً سياسياً في طبقات الشعب في الشرق ولكن هذا الوعي السياسي لم يجد أمامه إلا القوالب التي صاغها الغرب فاتخذها قوالب له. وكانت الحركات السياسية تظهر في أشكال شعبية عامة غير محددة . أو في مذاهب اجتماعية استقيت أفكارها وفلسفتها من الغرب ، وكلها ترمي إلى تأمين الحرية السياسية والعدالة في الداخل وإلى محاربة الاستعمار في الخارج . ولكن الوعي الاجتماعي اتخذ شكل التنافس بين الطبقات والفئات كالحركة العمالية والحركة النسوية .

وبالجملة ، نستطيع ان نقول ان لقاء الشرق بالغرب أفده من ناحية فدب فيه الحياة ونقل اليه الوعي والحركة . ولكنه في الوقت نفسه نقل اليه مساوئه ونقائصه .

فالى جانب النهضة العلميـــة والاجتماعيـــة والسياسية والاقتصادية ، كان الاستعمار والصراع القومي والطبقي والاثرة والأنانية الفردية وضعف الوازع الخلقي ، وانتشار المذاهب المادية وفشو الالحاد والاعتقاد بتفوق الغرب والشعور بالنقص ،

وانتشار أفكارٌ خاطئة نشأت في الغرب بسبب ظروفه التاريخية الخاصة ، ومنها الأفكار المتعلقة بالدين والتي نشأت في الغرب عن الصراع بين النصرانية والعلم من جهة ، وبينها وبين الثورات السياسية من جهة أخرى بسبب طبيعة الديانة النصرانية وتطورها واتجاه تعاليمها ومبادئها الخاصة بها ، والتي أدت إلى الأخذ بفكرة عزل الدين عن الحياة الاجتماعية عامة ، واعتباره أمراً شخصياً محضاً لا علاقة له بالتشريع والسياسة والتعليم .

أزمة في الشرق وفي الغرب

وهكذا.. غدا الشرق ملتقى لحضارتين: حضارته القديمة، بما اعتراها من وهن وضعف ، وخلل وانحطاط . وحضارة الغرب بما فيها من عناصر القوة والنهوض ومن بذور الفساد وضمور الشعور الخلقي . ونشأت لذلك أزمة وقلق في الأفكار والقيم والعادات . وأصبحت الحاجة ماسة لعلاج لهذه الأزمة ولنظام اعتقادي وخلقي ، يكون فيه الانقاذ، ولم تغن المذاهب المستوردة من الغرب شيئاً ولم تستطع ان تحل المشكلة .

ذلك ان الغرب نفسه كذلك في أزمة .. فان مساوىء الحضارة الغربية ، أخذت تتكاثر وتتسع وتتنوع كلما تقدم الزمن وجفت أو كادت ينابيع الخير. وأخذ الغرب نفسه يفتش عن طريق للخلاص من حمأة المادية وحمى التنافس ، ويحن الى حياة الروح ونعيم الأخلاق وفردوس الإنسانية ، بعد أن تردى في نوع جديد من الجاهلية المسلحة والوثنية المجملة بزينة الفن

والعلم . وبعد أن أصبح الإنسان في حاجة إلى حضارة تحيط بجوانب حياته وعناصر نفسه ، ولا تهمل ولا تظلم منها شيئاً، والى نظام كامل تنمو فيه انسانيته وتسمو أهدافه .

إن هذه الأزمة العامة في الشرق وفي الغرب تدفعنا الى استجلاء الإسلام في صورته الأصلية وشكله الصافي واتجاهاته السامية لنفتش في نظامه الاعتقادي والخلقي والتشريعي عن حل للمشكلة ودواء للأزمة وطريق للخلاص وسبيل الى سعادة الإنسان كما تقتضينا أيضاً دراسة أزمة الحضارة الحديثة ومعرفة عللها ونقائصها وذلك بغية تكوين وعي جديد يمكننا من التخطيط من جديد لحياتنا في جميع جوانبها وآفاقها .

ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد[1]

إننا في عصر تلتقي فيه المذاهب والحضارات ، ومثل هذه العصور تلتبس فيها المفاهيم وتتشابك العقائد وتتداخل المذاهب . وقد اعترى الإسلام في هذا العصر ، كما اعتراه في عصور سالفة غواشٍ غطت ، في بعض الأحيان ، على بعض أفكاره أو أدخلت عليه بعض الالتباس أو شوهته بعض التشويه . ولذلك كان من الضروري من أجل فهم الإسلام في صورته الصافية العودة من جهة إلى أصوله ومصادره الأصلية الأولى من الكتاب والسنة وفهم الصدر الأول له ومن جهة أخرى رفع الغشاوات التي غطت عليه ومعرفة العوامل التي أثرت في تغيير بعض مفاهيمه .

---

(١) ألقي هذا البحث في مدرج جامعة دمشق في ٣ آذار (مارس) ١٩٦٢ .

الاسلام في العصر الحديث :

مر الإسلام في هذا العصر في مراحل كان أولها ما يمكن أن نعنونه بعنوان (**الاسلام في قفص الاتهام**) فقد وقف دعاة الإسلام في القرن الماضي يدافعون عن الإسلام على أنه متهم في قفص . فالإسلام كما يقولون « ليس منافياً للرقي ولا مانعاً من التقدم ولا معارضاً للعلم والعقل ».فكأن الإسلام مجرم يرادأن يدافع عنه وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الإسلامية التي ألفها دعاة الإسلام منذ قرن في كتابات محمد عبده وفريد وجدي وأقرانهما .

ثم جاء عهد آخر خرج الإسلام فيه من قفص الاتهام ولكنه أصبح **يقاس بمقاييس غيره** أو يقوّم بقيم غير قيمه . فالإسلام صالح لأنه مبني على (الديمقراطية) والإسلام يستحق البقاء والخلود لأنه (متطور) والإسلام حسن لأن فيه كذا وكذا من الأفكار . وهذه الأفكار والمبادىء والقيم والمقاييس انما استعيرت من مذاهب أخرى فكأن الأصل أننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج إطار الإسلام ثم نحاول بعدذلك أن نقوّم الإسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على أنها قيم مسلم بها وعلى أنها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها. هذا طور ثان مر به الإسلام،ولا يزال الإسلام في هذا العصر اللهم الا بعض طلائع الوعي في بعض البلاد الإسلامية ، في هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره .

والمرحلة الثالثة وهي المرحلة التي بدأت طلائعها في رأيي هي **مرحلة الذاتية** بالنسبة الى الإسلام. فللإسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية فهو ليس صالحاً لأنه موافق للديمقراطية أو للاشتراكية أو للرأسمالية أو لأن فيه حرية فردية او لأن فيه مصلحة الجماعة أو لأن فيه كذا وكذا الى غير ذلك من المفاهيم المنبثقة عن مذاهب أخرى. إن للإسلام مقاييسه في الخير والشر والحق والباطل ولا نعني أن هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد إليها ولكنها جذور ممتدة من دوحتها وفروع مشتقة من أصل شجرتها . تلك هي المرحلة التي بدأت في العصر الحاضر أو بدأت طلائعها في عدد من المؤلفات القليلة وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي. وهي المرحلة التي نتنبأ بأنها ستكون مرحلة الإسلام في المستقبل القريب .

ولا بد لنا أن نعود القهقرى قليلاً لنعرف السبب أو العوامل التي أثرت في تقويم الإسلام بهذه القيم وفي التباس مفاهيمه بمفاهيم غيره لاسيما ونحن في أعقاب عصور ضعفنا فيها، ثم التقينا بحضارة كانت في أوج قوتها وعز نشاطها تلك هي الحضارة الأوربية الغربية الحديثة التي انبثقت هي نفسها من الوجهة المادية الى حد كبير من الحضارة الإسلامية في جانبها المادي .

أوربا التي التقينا بها

ان أوربا التي التقينا بها هي أوربا القرن الثامن عشر والتاسع عشر وأوربا في هذين القرنين كانت في ظروف فكرية واجتماعية خاصة . وقد كانت تتميز بنواح ثلاث متلازمة أولها :

الثورة على الدين فقد آل الأمر بالمسيحية في أوربا أن أصبحت غير منسجمة مع التطور الفكري والتفكير العلمي الذي انبثق إثر عصور النهضة فكان في أوربا صراع، صراع بين العلم الدين، بين العقل والدين وكان هذا الصراع شديداً لاهباً.

والظاهرة الثانية وهي لا تقل قيمة وخطورة عن الظاهرة الأولى هي أن الصناعة الكبرى إثر اختراع الآلة أدت الى نشوء طبقات جديدة وأدت الى انفصال رأس المال عن العمل وكان من ذلك أن نشأت طبقة العمال ونشأت الحركة الاشتراكية لإزالة ما كان يلحق تلك الطبقات من المظالم الاجتماعية ونشأت عن ذلك مفاهيم للحرية والديمقراطية والاشتراكية هي وليدة تلك الظروف التاريخية المحلية.

والظاهرة الثالثة التنافس القومي في أوربا فإن التنافس بين شعوب أوربا وقومياتها أدى الى ردود فعل خاصة جعلت من القومية أساساً تدور الحياة حولها وعقيدة تبنى عليها الحياة السياسية والفكرية وتلك العقيدة إنما نشأت في ظروف معينة هي التي أملتها ولم يملها منطق العقل أو منطق الحقيقة.

تلك هي أبرز الظواهر التي ظهرت في أوربا حين التقينا بها. ونشأ بنتيجة ذلك في ميادين الفكر والاقتصاد والسياسة أفكار متنوعة متعددة تأثرنا نحن بها. وعلى سبيل التمثيل إليكم بعض الأمثلة لبعض الأفكار التي أعتبرها وليدة هذه الظروف الخاصة فمن ذلك مثلاً أفكار كثيرة تتعلق بالدين هي بنت تلك

الظروف وتلك الحقبة من التاريخ وكثير من التعابير التي نستعملها اليوم ونستعيرها هي نتيجة تأثرنا من الحضارة التي انتقلت إلينا في تلك المرحلة وذلك كمشكلة الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والعقل وهي وإن كانت مشكلة قديمة ولكنها لم تأخذ هذا الشكل العنيف الحاد وكذلك الازدواج في التعليم بين ديني ومدني وتعبير رجال الدين . ولو نظرنا في كتبنا القديمة في العصر العباسي وما بعده وما قبله لما وجدنا مثل هذا التعبير الذي لم تعرفه العربية ولم يعرفه الإسلام من قبل . ومن ذلك فصل الحياة الى جزئين منفصلين ، لا يكاد يحدث بينهما اتصال ، الدين والدنيا ، وفصل الدين بنتيجة ذلك عن المجتمع وعن الدولة يجعل الدين أمراً شخصياً لا علاقة له بالحياة العامة وهذا أيضاً من المفاهيم التي انتقلت إلينا ، وأدت الى مفهوم آخر هو، مفهوم العلمانية ومعناه حياد الدولة وعدم تدخلها في شؤون الدين ، واللادينية ومعناها محاربة النزعة الدينية .

ومن تلك المفاهيم أيضاً نسبية الأخلاق، وهي وليدة أزمات خاصة اصطدمت فيها الأخلاق الدينية بالأخلاق الواقعية والأوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة بأوضاع ثورية جديدة، بعد ان ثبتت تلك الأخلاق والأوضاع مدة طويلة . وهي ولا شك فكرة خاطئة ، بدليل أن كثيراً من الحقائق أو الأحكام والقيم الخلقية لا تزال ثابتة منذ آلاف السنين، كاستنكار الغصب

والاضرار بالغير ، والزنى الذي لا تزال القوانين تحرمه في أكثر بلاد العالم ، ولا يعبأ ببعض أحوال المجتمعات التي تتكون على خلاف ذلك لأنها أحـوال مرضية شاذة واستحسان بعض المجتمعات في بعض العصور الاستبداد والظلم أو السكوت عنهما لا تجعل منهما أمراً مستحسناً ولا تغير الحكم بكونها شراً يجب مكافحته .

ومن هذه الأفكار الخاطئة التي انتقلت إلينا من المجتمع الأوربي بعد أن راجت فيه لظروف اجتماعية وفكرية خاصة **اعتبار التطور قانوناً أخلاقياً** أي اعتبار كل طور جديد أفضل من الطور الذي سبقه على الاطلاق مع أن التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة له . ان فكرة التطور الاجتماعي أخذت من فكرة التطور الحيوي (البيولوجي) والتطور في الحياة قد يكون تحسناً وارتقاء وقد يكون تردياً وانتكاساً بل انقراضاً[1] .

فإن بعض المذاهب الفلسفية والاجتماعية في أوربا تقول إن الأخلاق ليس لها مقاييس ولا أحكام ثابتة فلكل قوم أخلاقهم ، فقوم يرون أن شرب الخمر رذيلة وشر وغيرهم يرى فيها غير ذلك وبعضهم يرى أن الزنى شر ورذيلة وبعضهم يرى فيه إكراماً للضيف ، فالقضية قضية نسبية وليس هنالك قواعد أخلاقية مطلقة وليس هنالك حقيقة أخلاقية مطلقاً وإنما القضية

---

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن التطور في هذا الكتاب .

نسبية ، فالخلاف إذن ما بدا لك وكلما تطور المجتمع نحو تكون خلقية جديدة فهي الأخلاق التي يجب أن نتمسك بها . هذه الفكرية أيضاً من الأفكار التي اعتقد أنها نتيجة من نتائج الظروف التي مرت بها أوربا .

إن هذا الغزو الفكري الذي غزينا به بنتيجه الالتقاء بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الأوربي كان له تأثير عميق في الفكر الاسلامي الحديث . حتى أن جمهرة الشعوب الإسلامية والطبقة المثقفة منهم خاصة بل غير المثقفة تأثرت بهذه الأفكار سواء أولئك الذين يتنكرون للقيم الإسلامية وأولئك الذين يقبلون الإسلام ويدينون به .

ازدواج الشخصية :

فمن المسلمين — وهذه ظاهرة تلفت النظر — من هو مسلم في شعائره ولكنه غير مسلم في تفكيره بمعنى أنه يتألف من شخصيتين مزدوجتين. فهو قد عاش في بيئة اعتادت التدين فهو متدين ولكنه نشأ في بيئة ليس لها من المفاهيم الفكرية الإسلامية ما يتناسب مع مستوى تفكيره فهو يفكر تفكيراً غير إسلامي إذا فكر في شؤون الحياة سواء في شؤون الحياة العامة الفكرية أم الاجتماعية والخلقية والسياسية أو غير ذلك وهو في حياته الخاصة يعتبر مسلماً. هذا نوع من المخلوقات الفكرية أو النفسية الجديدة في عالمنا . وكان في العالم الإسلامي نوعان مزدوجان

من التعليم : تعليم إسلامي ولكنه قـديم بطريقته ووسائل ومستواه يعود الى القرون التي تلت العصور العباسية ، وتعليم مصدره أوربا وأفكار أوربا الحضارة الأوربية الحديثة . وقد أدّى ذلك في بعض الأحيان بسبب هذا الازدواج والتناقض وبسبب الأزمة الفكرية النفسية التي حدثت في بعض الناس الى ظواهر غريبة أو الى ظواهر من نوع معين كظاهرة تأويل كثير من أحكام الإسلام تأويلاً فيه كثير من المواربة والتعسف من أجل المطابقة بين الإسلام والمذاهب الأخرى ولكن على حساب الإسلام كما يقولون فكأنه يراد ان يشذّب الإسلام ويقطّع حتى يدخل في قارورة فمها ضيق ولو أدى ذلك الى أن تقطع منه يداه أو رجلاه أو جهاز من أجهزته العضوية الأساسية . ولا بأس ان أضرب على ذلك أمثلة وهذه الأمثلة اسمحوا لي ان أقول إنها رأي شخصي لي ، وقد يكون غيرها أولى منهـــا بالاستشهاد في هذا الموضع . فمن هذه الأمثلة مسألة التماثيل . فإن كثيراً من المتدينين يحاول ان يسوغها ويحللها ويروج لها في مجتمعنا الإسلامي الحديث ذلك لأن اقامة التماثيل أصبح أمراً شائعاً بين الأمم على اعتبار ان اقامة هذه التماثيل كان محرماً لعلل وقد بطلت هذه العلل على زعمهم وزالت. إن هذاالتفكير في رأيي باطل من أساسه لأن الفكرة هي أعمق مما يظنه هؤلاء السطحيون ممن يريدون بهذه الطريقة الدفـــاع عن الإسلام . فاقامة التمثال له مغزى فلسفي عميق . ذلك ان الأمة التي تقيم التمثال لبطل من أبطالها إنما تجسد البطولة في شكل مادي ،

ولو رجعنا إلى العصور الإسلامية لوجدنا ان اعطاء الشخص في جسمه وفي ذاته قيمة عليا فكرة مردودة . فأعظم شخصية في الإسلام هي شخصية محمد بن عبد الله ﷺ الذي يعتبر بشراً ولكنه فوق جميع البشر بصفاته وكماله . ومما لا شك فيه انه لم تخلد شخصية في التاريخ وفي خلال العصور في نفوس الناس وفي أذهانهم وفي الكتب والدراسات كما خلدت شخصية الرسول محمد ﷺ . فما هي الطريقة التي اختارها المسلمون لتخليده . لا شك اننا جميعاً نعرف ان تخليد شخصية الرسول (ﷺ) كان تخليداً معنوياً خالصاً وكان تخليداً أعظم وأقوى من أي تخليد لأي شخصية كانت . ولا يزال يرن في أذني صوت لعجوز هندية في الباكستان في حديقة كراتشي في أمسية من تلك الأمسيات التي كنت فيها هناك أزور تلك الحديقة فسمعت هذه العجوز الجالسة على الأرض تسأل الناس وتقول اللهم صلي وسلم على سيدنا ومولانا محمد فقلت عجباً لهـــذه المرأة الهندية حفيدة المجوس وعباد الأوثان عجباً لهذه المرأة التي لا تعرف العربية والتي يفصلها عن محمد عليه الصلاة والسلام آلاف الأميال في المكان ومئات السنين في الزمان كيف تنطق بلفظ عربي مبين باسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتشيد بشخصيته .

وقد أقمت سنين في أوربا ، وكنت أشاهد في شوارع باريس وحدائقها كثيراً من التماثيل وأؤكد لكم أن كثيراً من الفرنسيين الذين كانوا يزاملونني في الدراسة كانوا لا يعرفون كثيراً من هذه

التماثيل ولا معانيها ولا نواحي البطولة التي يمثلها أصحابها . ولو استعرضنا الأمم لوجدنا أن تلك التي تقدس المادة وتتجه اتجاهاً مادياً هي التي تجسد البطولة في شكل مادي وهي التي تخلد الأبطال في شكل تماثيل ، بل هي الأمم التي كانت في الحقيقة وثنية في اعتقادها ودياناتها كاليونان والهنود وقد أخذت هذه الوثنية شكلاً آخر من الأشكال الحديثة المدنية ، فاليونان كانت أساطيرها تعج بالأبطال والبطل لا يتصور ان يكون بشراً في نظرهم لأنهم أعجز من أن يتصوروا الإنسان بطلاً ، فإذا ما أصبح بطلاً نقلوه من صف البشر إلى صف الآلهة . وأما المسلمون فإنهم كانوا على خلاف ذلك فلو ذهبت اليوم إلى أقصى حدود المغرب إلى أقصى حدود الهند والصين ونطقت باسم علي أو أبي بكر وباسم عمر أو خالد لوجدت رنيناً لهذه الألفاظ لا تجده أبدا لتمثال مقام في موسكو أو في برلين أو في باريس . فالقضية إذن ليست قضية تحليل التماثيل فالتماثيل محرمة في الإسلام لفلسفة عميقة هى أعمق بكثير مما يظن هؤلاء السطحيون من الذين يحسبون أنهم يدافعون عن الإسلام باخضاعه لنظم هي أدنى منه ولمقاييس هي دون مقاييسه .

ومن أمثلة ذلك اليانصيب التي أعتبرها ظاهرة مغزاها العميق أن معين الأخلاق المنبثق عن الإيمان قد نضب من القلوب وأن الناس أصبحوا ماديين لا يهتمون إلا بالمادة والربح والاغراء بالربح ولا بد من إغرائهم بالربح حتى نأخذ منهم المال لعمل

خيري. فاليانصيب مبني إذن على فكرة نضوب معين الأخلاق من القلب لا على أساس محاولة انبثـــاق الأخلاق من القلب والعاطفة والنفس في شكل تضحية حقيقية بل بشكل اغراء خسيس بالكسب . هذا ويجب أن نميز بين هذا النوع أو هذه الظاهرة التي أسميتها التعسف في التأويل وبين تكييف الحوادث والنوازل الجـديدة التي ينبغي استنباط أحكامها من الشريعة الإسلامية مما سأذكره بعد قليل .

تشويه المفاهيم الاسلامية :

ان هذه الظاهرة ظاهرة **تشويه المفاهيم الاسلامية** بسبب الالتقاء بالحضارات الأخرى ليست جـديدة في تاريخنا ففي تاريخنا القديم مثل ذلك . فقد التقينا بالفكر اليوناني وكان نتيجة الالتقاء ظواهر كثيرة كمسائل علم الكلام فـلم تكن العقيدة الإسلامية وعلى الأصح الإيمان الإسلامي — لأن لفظ العقيدة كذلك حادث — في عهد الرسول (ﷺ) والصحابة آخذاً هـذا الشكل الجدلي الفلسفي الذي أخـذه في العصر العباسي .

فقد كان الإيمان — وهي الكلمة القرآنية — محتوياً على معنى عقلي وعلى معنى نفسي عاطفي ملتبسين متداخلين كل التداخل في العهد الاول عهد ظهور الإسلام . واذا بنا نرى ان الإسلام يتشعب الى شعب ثلاث: شعبة تأخذ بظاهر الأحكام والشعائر في العبادات والمعاملات . وفرع آخر يأخذ من الإسلام نواحي

الاعتقاد العقلي وهو **الكلام والعقيدة** أو علم التوحيد . وفرع آخر للاسلام يأخذ نواحيه القلبية والخلقية وهو **الاخلاق أو الزهد** أو ما سمي بعد الصدر الأول بالتصوف . فإذا بالإسلام يتألف من شعب ثلاث ينفصل بعضها عن بعض : **الفقه والكلام والأخلاق** . ولا أقصد من هذا ان الفقهاء كلهم لم يكونوا ملمين بشيء من الكلام وان المتكلمين جميعهم لم يكونوا على شيء من الفقه وان الزهاد والوعاظ لم يكونوا يعنون بالفقه والعقائد ، ولكن كان يغلب على الرجل ان يكون متكلماً أو متفقهاً أو زاهداً متصوفاً وان كان بعضهم قد جمع هذه الجوانب كلها .

وأصبحت هذه الجوانب كلما تقدم الزمن منفصلة بعضها عن بعض بعد أن كان الإسلام وحدة شاملة . وهذا يعطي عن الإسلام صورة جانبية ، فهنالك إسلام علم الكلام وهناك إسلام الأخلاق وهناك اسلام الفقه ، والإسلام هو الإسلام ليس الإسلام إسلام الكلام او الفقه او التصوف . والصورة الجانبية لا يمكن أن تعتبر صورة كاملة تامة في رأيي ولذلك فان تشعب هذه النواحي وان كان فيه تسهيل من الناحية العلمية والدراسية تجزئة لحياة موحدة لا يحصل في أجزائها ما يحصل في تركيبها جملة واحدة . والإسلام الأول إسلام الصدر الأول من الصحابة الذين كانوا ملتفين حول الرسول (ﷺ) يجمع هذه العناصر الثلاثة جمعاً منسجماً متوازناً حيوياً .

وعلى هذا فلا بد لنا اذن من ان نفصل الإسلام في ذاته

عن فهم المسلمين للإسلام خلال العصور . فهنالك الإسلام في أصله وينبوعه في الكتاب والسنة في مصادره الأصلية وهنالك فهم المسلمين في كل عصر فقد يخطىء بعض المسلمين في فهم الإسلام في بعض العصور فذلك أمر لا يعيب الإسلام في ذاته وفي مصادره الأصلية ولا في صورته الحقيقية . ولا شك ان الفهم الذي يمكن ان نعتبره أقرب للتصوير الحقيقي للإسلام والذي نستأنس به نحن في فهم الإسلام هو فهم الصدر الأول اي فهم الصحابه والتابعين . ولست في هذه العبارة أعني أي غض من مفهوم المسلمين للإسلام في سائر العصور التالية فقد ظهر في كل عصر من كبار العلماء والباحثين والمدركين لحقيقة الإسلام كثير ممن لم تنقطع حلقاتهم وسلسلتهم حتى عصرناهذا فللإسلام في الحقيقة إذن إذا كشفنا عنه غواشيه سواء في هذا العصر أم في العصور السالفة ذاتيته وحقيقته والاسـلام في الحقيقة نظام كامل ، فهو من جهة فهم للحياة وتصور شامل للوجود وايمان بهذا الفهم ونظام عملي ينبثق من هـذا التصور والإيمان .

ويتلخص التصور أو المفهوم الاسلامي العام في ان هذه الطبيعة التى تحيط بالإنسان والكون الذي يعيش فيه مهما يتسع أفقه ومسافاته ،كون مخلوق من ورائه وجود مطلق وقوة حية مدركة هي قوة الخالق والإنسان في هذا الكون وبهذه الأرض بالذات مستخلف من الله الخالق ليعيش فيها وليتمتع بما فيها من نعم وطيبات وأرزاق بل ملذات محللة مشروعة على أن يعلم

انه في استخلافه هذا وفي تمتعه وسعيه وعمله محاسب ومسؤول أمام هذه القوة الخالقة المدركة المحاسبة . وينبثق عن هـذا الفهم وعن هذا الإيمان عمل وعبادة متصلان أيما اتصال من حراثة وزراعة للأرض وتأمل لهذه القوة التي خلقته وأنعمت عليه وهذا العمل والعبادة هما من نوع واحد فهو يطيع الله في أن يشق الأرض بالمحراث أو يحرك الآلة في يده وهو في ذلك مطيع لله عابدله وكذلك هـو مطيع متعبد حينما يخلو في سويعات من يومه ليفكر في خالقه وليتأمل فيما وراء هـذه الحياة من مسؤولية وحساب . وينبثق عن هـذه الفكرة أو العقيدة أو الإيمان على الأصح تعاليم أخلاقية وهي تعاليم تأخذ من ناحية بشيء من الواقعية في الحياة وتعمل من ناحية أخرى لترقية الروح فتفسح المجال للغرائز وتصريفها في حدود معينة وتضبطها وتعمل على انسجامها مع الرقي الخلقي والروحي . ولست الآن لألخص في أكثر مما قلت المـذهب الأخلاقي في الإسلام . والإنسان الذي يؤمن هذا الإيمان ويعمل في الحياة في هذا الطريق ليس هو الإنسان الفرد بل هوالإنسان الموجود في إطار اجتماعي الذي يعيش في مجتمع يحدد الإسلام اتجاهاته وصفاته وعلاقات أفراده بعضهم ببعض ، ويعني به كذلك باعتباره مجتمعاً أو جماعة ، ويقيم له تشريعاً تنسجم فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فيقيم له نظاماً اجتماعياً يكفل له هذا الرقي الإنساني المادي والروحي ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على نظام للحكم أساسه الشورى والمساواة والعدالة والمسؤولية ،

وعلى نظام اقتصادي مبني على العدالة من جهة وعلى التكافل الاجتماعي من جهة أخرى كما يشتمل على نظام للأسرة الخلية الطبيعية الأولى والبيئة التربوية لكل مجتمع سليم .

هذا المجتمع الذي ينظم الإسلام جوانب حياته السياسية والاقتصادية والأسرية في سبيل سعادة الإنسان وارتقائه يقوم على أسس اعتقادية خلقية تكون جذور نظامه وأسس بنائه . فالتشريع الاسلامي بالاضافة إلى موضوعيته وتنظيمه على أسس ظاهرة وضوابط موضوعية له جذور خلقية في النفس وأصول اعتقادية تغذيه وتمده وتدعم بناءه . فالتشريع غير منقطع الصلة بالأخلاق وان كان لكل منهما قواعد لا تلتبس بالأخرى ، وهذه الأخلاق ترتكز على نظرة الى الوجود أو فلسفة شاملة أو عقيدة كاملة .

وبذلك يتصل في نظام الإسلام عقيدته أو فلسفته وأخلاقه وتشريعه الاجتماعي وتؤلف كلها وحدة متكاملة تقابل وحدة الحياة وهذه مزية هامة من مزايا الإسلام تميزه عن غيره من الأنظمة الأخرى التي تعالج جانباً واحداً من جوانب الحياة أو تعالجها منفصلة دون أن تنظر اليها على أنها وحدة كاملة . ان الوحدة والتوازن والانسجام والشمول خصائص تميز نظام الاسلام من الأنظمة الأخرى المادية منها والروحية الوضعية والدينية .

ضبط النسب في نظام الإسلام

والى جانب خاصة الوحدة في نظام الإسلام خاصة أخرى لا تقل عنها شأناً وهي ضبط النسب بين جوانب الحياة وقيمها فالمال واللذة والعمل والعقل والمعرفة والقوة والعبادة والقرابة والقومية والإنسانية قيم من قيم الحياة والإسلام جعل لكل منها موضعاً في نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطغى قيمة على قيمة . وان من التشويه للإسلام تبديل هذه النسب بحيث تزاد عن حدها أو تنقص بالنسبة الى غيرها كما حدث فعلاً في بعض العصور الأخيرة فإن تغيير النسب في نظام الحياة كتغيير النسب في التصوير الهزلي الذي يعطي من الإنسان المعالم والمشابه ولكن على وجه هزلي ساخر وكتغيير النسب في أجزاء الدواء فقد يؤدي الى افساده وتغيير صفاته وخصائصه وربما انقلب الى مادة ضارة أو سامة فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا ان الإسلام خص العبادة منها بأجزاء وكذلك الإنفاق والكسب والجهاد والتمتع بالملذات المشروعة لكل منها نصيب محدود ولو غيرنا هذه النسب فقللنا قيمة الجهاد وزدنا في نصيب العبادة وانتقصنا من حظ المال كسباً أو انفاقاً وغالينا في الملذات أو الغيناها لخرجنا من ذلك بنظام يخالف في حقيقته وفي روحه نظام الإسلام وأخللنا بالتوازن الذي أقامه بين قيم الحياة وجوانبها فالمسلم الكامل في بعض العصور الأخيرة هو المنصرف الى العبادة بمعناها الضيق لا يشتغل بسواها، المعتكف في محرابه

لايبارحه ، الملتزم لاذكاره وأوراده . ان هذه الصورة لا تشبه مطلقاً الصورة التي كان عليها الرسول الكريم صلوات الله عليه وأصحابه المقتدون به فلئن كانت العبـادة جزءاً أساسياً في حياتهم فإن الجهاد كان مالئاً لصفحـاتها ، الجهاد في سبيل تحرير المجتمع من العقائـد الفاسدة وترسيخ العقائد الصحيحة وتحريره من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين لحماية المستضعفين واقامة العدل بين الناس . وكذلك تكون حياة المسلم المنشغل بالجهاد والإصلاح الاجتماعي ناقصة مشوهة بالقياس إلى الصورة الإسلامية الكاملة اذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله .

وقد انتبه فقهاؤنا المتقدمون الى هذه الفكرة فكرة النسب فجعلوا ما يطلب من المسلم من الفرائض وغـيرها متفاوتة في قوة طلبها كما جعلوا الممنوعات المحرمـات مختلفة كذلك في درجة منعها أو حرمتها . فليس سواء في الإثم تركُ المجاهـد المرابط في صف الجهاد مكانه وفسحه المجال لدخول العـدو وشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير مع ان كلا الأمرين حرام . وتشير آيات وأحاديث كثيرة الى هذه الفكرة كقوله تعالى : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله [1]. وكقول الرسول ﷺ حين سئل ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟وأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً وهو يقول لا تستطيعونه ثم قال مثـل

(١) سورة التوبة ١٩ .

المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لايفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد [١] وفي الصحاح قيل : يا رسول الله أي الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قيل: ثم من، قال: رجل في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره [٢]. وروى الإمام أحمد بسند صحيح قول الرسول ﷺ درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية . فالربا وهو من أنواع الظلم المالي أشد حرمة من الزنى . ولو حاولنا أن نجمع أمثال هذه الأحاديث التي تقدر القيم بعضها بالنسبة إلى بعض لخرجنا منها **بنسب رياضية بين قيم الحياة** . كقوله عليه الصلاة والسلام : يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة [٣] وقوله : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم [٤] وقوله : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد [٥] .

ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون همهم إلى أمر قد يكون في ذاته مطلوباً أو ممنوعاً في الإسلام ولكن في مقابله أمر

---

(١) أخرجه الستة إلا أبا داود .
(٢) أخرجه الستة إلا مالكاً .
(٣) وفي رواية عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة بقيام ليلها وصيام نهارها وجور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة (الطبراني في المعجم الكبير والأوسط) .
(٤) أخرجه الترمذي وصححه .
(٥) أخرجه الترمذي وقال هذا غريب لا نعرفه إلا عن الوليد بن مسلم.

أخطر منه بكثير فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطرين عظيمين هما الاستعمار والالحاد أي الاستيلاء على الارض والاستيلاء على العقيدة أي اتلاف ثرواتها المادية والمعنوية وسلبها ، ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر لما أمكن إقامة شعائر الدين ولا القيام بأوامره وتطبيق أحكامه ولذلك فإن صَرف أذهان الناس الى قضايا أخرى وجعلها محور النضال الإسلامي الهاء عن أهم القضايا الأساسية التي هي الاستيلاء على البلاد الإسلامية أو السيطرة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وتهديم العقيدة الإسلامية بشتى الأساليب ونشر الأفكار والمذاهب الإلحادية على اختلاف صورها . فهل يجوز في مثل هذه الحال تقسيم المسلمين الى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون والى القائلين بتكرار الجماعة أو عدمها أو احتدام معركة السنة والبدعة في أمور لا تمس العقيدة . أنا لا أقول أن لا تبحث هذه الأمور بحثاً علمياً بل أقول انه يجب التنبيه حينما يكون الأمر ماساً بالعقيدة ويحسن التنبيه إلى الطريقة الصحيحة في العبادات لأن العبادات توقيفيه فلا زيادة ولا نقصان فيها عما أمر به النبي صلوات الله عليه أو فعله ومع ذلك فإذا كان ذلك يحدث فتنة أو يحدث خصومة وعداوة بين فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر أعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين إلى فئات متعددة في ظروف وأحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى ولا الاشتغال إلا بالقضايا الأساسية الكبرى .

الإسلام في مواجهة المشكلات الجديدة

(١) التعسف في فهم النصوص

إن المسلمين حين واجهوا الحضارة الغربية في هذا العصر وقفوا مواقف مختلفة وصادفوا أحوالاً متنوعة . ففي حين أن بعضهم قاس الإسلام بمقاييس غيره وقوّمه بقيم استعارها من أنظمة أخرى وهي غير مسلم بها نرى فريقاً آخر يتعسف في فهم النصوص ويتعثر في فهم مدلولات الألفاظ ومثال ذلك من ينكر مبدأ الضوائب المالية بحجة أنه ليس في الإسلام ضرائب وإنما فيه الزكاة ولو كان هذا المنكر دقيقاً خبيراً لقال ان الضريبة مال تستوفيه الدولة من الناس وتجبيه منهم جبراً بطريقة معينة أو نسبة محددة . ولو نظرنا إلى موقف الإسلام حينئذ من الضريبة لوجدنا أنه يقر أنواعاً منها وينكر أنواعاً فالزكاة نفسها ضريبة مالية وكذلك الخراج والجزية مثلاً . ولو طرحنا هذا السؤال هل يجوز لولي الأمر أن يفرض على الناس ضرائب لم يرد عليها نص شرعي لكان الجواب أن في الإسلام قاعدة قررها الحديث الوارد في صحيح الترمذي وهو قوله عليه السلام « في المال حق سوى الزكاة » ولم يحدد الحديث هذا الحق فاذا اقتضت مصلحة المجتمع إنفاق المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي وكانت هذه المصلحة ضرورية كالدفاع عن أرض المسلمين أو كفاية الفقراء الذين لم تكفهم أموال الزكاة

فلولي الأمر أن يفرض في أموال القادرين ما يسد تلك الحاجة الضرورية تطبيقاً لهذا المبدأ . وعلى هذا فليس مبدأ فرض الضريبة في ذاته منكراً ولكن لو فرض الحاكم ضريبة لا مسوغ لها أو تتضمن ظلماً لفئة من الناس لكان بذلك مرتكباً ظلماً لا يقبله الإسلام . ولا عبرة لكون لفظ الضريبة حديثاً غير قديم ولا يستدل من حداثتها على أن مدلولها لم يكن معروفاً بل الأمر على عكس ذلك إذ أن مدلولها وهو (فرض ولي الأمر فريضة في مال الرعية) كان معروفاً وتدخل الزكاة تحت هذا المعنى الواسع ولكن الزكاة هي الحد الأدنى الذي لا بد منه وإذا تأملنا الحديث القائل : (في المال حق سوى الزكاة) والحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه : عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » . أقول إذا تأملنا في هذين الحديثين عرفنا أن لولي الأمر كما بيّن الفقهاء أن يأخذ حين اقتضاء الضرورة وتحقق المصلحة العامة من أموال الناس الزائـدة عن حاجاتهم الأصلية ماتقتضيه تلك الضرورة وتتحقق به المصلحة ويفهم من هذا الحديث أن تملك ما يزيد عن الحاجة إنما هو في المفهوم الإسلامي نوع من التملك الذي يمكن أن يحدده ولي الأمر بحدود الضرورة والمصلحة العامة .

وأما تقدير الضرورة والمصلحة فليس كيفياً ولا خاضعاً لأهواء الحاكم وإنما يجب أن يستأنس فيه بأهداف الشرع المستنبطة من نصوصه ويقتصر فيه على حد الضرورة ولا يتعداها . وقد ذكر الفقهاء أحوالاً لولي الأمر له فيها أن يأخذ من أموال الأغنياء أو من فضول أموال الناس ما تسد به الحاجة الضرورية .

(٢) تطبيق قواعد الشريعة على الأحوال الجديدة

وقد تحدُث للناس أحوال وتقع لهم وقائع تقتضي حكماً جديداً على مبادىء الشريعة ويستنبط من أهداف نصوصها ومن قواعدها العامة وغاياتها . ومثال ذلك في عصرنا **نظام العمل**. فقد يقول: قائل أن العامل بالنسبة إلى رب العمل أجير تنطبق عليه أحكام الإجارة في كتب الفقه والعقد الذي ينبغي أن يطبق ما دام مستوفياً لشروطه وليس لكم أن تفرضوا على رب العمل أو على العمال أي شرط آخر كتحديد الأجر أو ساعات العمل أو غير ذلك .

ولو نظرنا إلى هذه المسألة بروح الشريعة لوجدنا أن هذا الاعتراض سطحي جداً ومردود وينطوي على جهل بظروف المشكلة وبروح الشريعة في آن واحد . ذلك أن العامل قد يكون مضطراً بسبب حاجته لقبول الأجرة المعروضة عليه وقد تكون دون ما يستحق من أجر وتشتد الحال إذا كان

رب العمل واحداً أو جماعة متفقين على أن لا يدفعوا للعمال إلا أجراً ضئيلاً ، طمعاً في الربح الكثير مستغلين شدة حاجة العمال الطالبين للعمل . وقد يرهق رب العمل عماله بالعمل الطويل الشاق كما كان يحدث في أوربا في أوائل عهد الصناعة الآلية . وفي مثل هذه الحال يستطيع أن يتحكم قليل من أصحاب المال والنفوذ في آلاف من العمال الفقراء غير أولي النفوذ .

فهل نتركهم في فقرهم وسوء حالهم ؟ إن الإسلام يعالج هذه القضية وذلك بأن يعطي الفقراء من العمال من بيت المال إذا كان فقرهم غير ناشىء عن ظلم من استخدامهم في العمل. وإذا لم يكن في بيت المال من أموال الزكاة ما يسد هذه الحاجة فرض على الأغنياء فريضة من أموالهم ليردها على الفقراء . وأما إذا كان الفقر ناشئاً عن ظلم هؤلاء العمال كاعطائهم من الأجر دون ما يستحقون ودون ما تقتضيه العدالة في توزيع الربح وأخذ صاحب العمل الأرباح الفاحشة فإن لولي الأمر ان يتدخل في الأمر ويفرض الأجر العادل .وهذا يدخل في باب التسعير وهو تسعير للأعمال كتسعير السلع والبضائع وقد نص أكثر الفقهاء على جواز التسعير في أحوال منها احتكار الأقوات وبيعها بسعر جائر . والأعمال كالسلع في هذا الحكم [١] ، وقد ورد في

---

(١) راجع بحثاً مفصلاً في التسعير وأقوال المذاهب فيه في كتاب الحسبة لابن تيمية أو في كتاب الطرق الحكيمة لابن قيم الجوزية ، وانظر كتابنا (الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) .

الحديث (أعط الأجير أجـــره قبل أن يجف عرقه) ، وفي الحديث الآخر الوارد في صحيح البخاري : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته من أعطى بي ثم غدر ومن باع حراً وأكل ثمنه ومن استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره » . ولا شك أن المقصود من أجره في الحديثين الأجر العادل الذي يستحقه لا الأجر الجائر الذي يأخذه بالرضى الظاهر مع السخط القلبي لشدة الحاجة . وقـد ورد في أحاديث أخرى النهي عن تـكليف الصبيان الكسب لئلا يلجؤوا إلى السرقة وعن تـكليف الاماء كذلك[1] كما ورد النهي عن تـكليف الخدم من العمل ما يغلبهم[2].

ومن المعلوم أن لولي الأمر أن يقيد المباح أو أن يأمر به إذا كان في ذلك مصلحة عامة وفي هذا كله مـا يصلح أن يكون أساساً وقاعدة لنظام للعمل تصان به حقوق النـاس سواء أكانوا عمالاً أم أرباب عمل أو أصحاب أموال لأنه كما يمكن أن يظلم أصحاب الأموال العمال ، يمكن أن يقع العكس كذلك بأن يطغى العمال بسبب كثرتهم وشدة ضغطهم وتسلطهم في بعض الأحيان على الحكام فيطالبوا بمـا ليس من حقهم وإن كانت الحالة الأولى الأكثر شيوعاً ووقوعاً . فوظيفة ولي الأمر في الشريعة الإسلامية إقامة العدل وإلزام كل إنسان

---

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٤٣ .

(٢) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٨٤ .

حده وإعطاء كل ما يستحق وفقاً لقواعد الشريعة التي روعيت فيها في الأصل مصالح الناس وحقوقهم وإنصاف بعضهم من بعض . ولا يقال إن هذا من باب التشريع ، ولا يجوز لولي الأمر أن يشرع لأن الله وحده هو المشرع فإن هذا كلام مبني على المغالطة لأن لفظ التشريع أصبح له معنى اصطلاحي جديد وليس هو في الحقيقة في الأحوال التي ذكرناها من تحديد الأجور أو ساعات العمل أو ما يشبه ذلك من التقييدات إلا تطبيقاً لقواعد الشريعة وتنفيذاً لأحكامها من باب السياسة الشرعية ومما أجازه الشارع لولي الأمر تحقيقاً لإقامة العدل بين الناس . وتسمية الناس له تشريعاً لا تجعله ممنوعاً سواء أكانت هذه التسمية صحيحة أم خاطئة ، فالعبرة بما يدل عليه اللفظ وبحكم الإسلام فيه .

(٣) مصطلحات وتصنيفات جديدة :

إن من الأحوال التي يقع فيها الالتباس والخطأ استعمال ألفاظ اصطلاحية جديدة أو تصنيف الأشياء تصنيفاً جديداً .

فإن استعمال الألفاظ والمصطلحات الجديدة قد يجر إلى نتائج خطيرة ويؤدي إلى انحراف وإلى إدخال مفاهيم غريبة وقد يكون مجرد اصطلاح في التسمية ولا مانع منه مطلقاً في هذه الحالة ، كما لو جمعنا أحكام الزواج والطلاق والنفقة والوصية والميراث في باب واحد وسميناه الأحوال الشخصية أو أحكام الأسرة ، أو جمعنا الأحكام المتعلقة بعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من

الدول تحت عنوان العلاقات الخارجية أو القانون الدولي دون أن نغير شيئاً من تلك الأحكام فاننا لا نكون بذلك قد أحدثنا خللاً أو تشويهاً في أحكام الإسلام ومفاهيمه . ومثل هذه المصطلحات استحدثت في العصور الإسلامية السابقة وكثير من مصطلحات الفقهاء قد نشأت في عصر متأخر عن صدر الإسلام.

ومع ذلك كله فإن هذه العملية قد لا تكون مبرأة من العيوب والآفات فان فصل بعض المسائل عن غيرها ووضعها تحت عنوان خاص قد يؤدي إلى انقطاع صلتها بغيرها أو إلى إخفاء هذه الصلة التي قد تكون مقصودة في ذاتها . ومثال ذلك لفظ (**العقيدة**) فإني لم أصادف هذه الكلمة في نصوص الكتاب والسنة وأرى انها مستحدثة في العصر العباسي لهذا المعنى الذي استعملت فيه واللفظ المستعمل في القرآن والحديث هو **الايمان**.

وقد استعمل لفظ العقيدة أجيال من أئمة المسلمين وعلمائهم بمعنى الأفكار الأساسية التي يجب على المؤمن بالدين أن يصدقها ويقبلها أي **يعتقدها** . واستعمال السلف من العلماء والأئمة دليل على الجواز ومع ذلك فإن هذا الاستعمال يتضمن فصل العنصر العقلي الذى هو مضمون العقيدة عن العنصر النفسي مع أن كليهما مجموع في لفظ **الايمان** المستعمل في القرآن والحديث .

وكذلك جمع أبحاث العقيدة في علم سمي **علم الكلام** يتضمن تخصيص الأبحاث العقلية من العقيدة وإفرادها دون الجانب القلبي أو النفسي الذي أفرد له علم آخر . إن جمع أصول الإيمان ومسائل الاعتقاد في باب واحد تحت اسم العقيدة عمل

صحيح سليم واستحداث لفظ العقيدة لا يدل على استحداث
مضمونها ولا يغير منه شيئاً بل انه يفيد حصر قضايا الاعتقاد
بتمييزها من غيرها ويزيدها تنويراً وإيضاحاً ، ولكنه ينطوي
في الوقت نفسه على عملية فصل تلك الوحدة الحيوية الشاملة
التي يحيط بها لفظ الإيمان وتشتمل على عنصري العقل والعاطفة
أو القلب وعلى انفصال الاتجاه العقلي عن الاتجاه النفسي
القلبي .

وهنالك حالة ثانية يكون فيها للتعبير أو اللفظ خطورة
بالغة وتأثير عميق وتغيير للمفاهيم أو إدخال لمفاهيم جديدة
غريبة عن الأصل . ذلك أن نقل الألفاظ من عقيدة إلى
عقيدة ، ومن مذهب أو نظام إلى مذهب أو نظام آخر يجر
معه ملابساتها والمفاهيم المتصلة بها في تلك البيئة التي كانت فيها.
إن ألفاظ **الديمقراطية والاشتراكية والحرية** مثلاً نشأت
وعاشت في أجواء وبيئات معينة واقترنت بمفاهيم ونظريات
خاصة فإذا استعملناها حين نعبر عن نظام الإسلام ومفاهيمه
نتعرض – إذا لم نتصف بالدقة والوعي الإسلامي السليم –
لخطر إدخال مفاهيم غريبة أو إحداث انحراف في الاتجاه
كما سنبين ذلك بوضوح وتفصيل .

ومن أمثلة هذه التعابير التي دخلت في لغتنا ونقلناها من
اللغات الأجنبية ونقلنا معها ضمناً النظيرة التي تحملها ، يكتبها
كبارنا ويتعلمها صغارنا في المدارس منذ السنين الأولى ، قولهم

مثلاً أن الطبيعة أعطت سورية مناخاً صالحاً ومنحت سواحلها أمطاراً كثيرة ، أو قولهم على سبيل المجاز تبعاً لذلك غضبت الطبيعة فبخلت بالأمطار وحركت أمواج البحر ... ان هذه التعابير وليدة نظرة القرن الثامن عشر في أوربا حين أحلوا الطبيعة محل الله فألهوها وأنكروا وجود الله وهي نظرة إلحادية واضحة وترديد هذه التعابير على مسمع المبتدئين هو تلقين ضمني لنظرية الإلحاد واشاعتها بين الناس إشاعه لا شعورية . ومن هذا القبيل أيضاً استعمال أوصاف البطولة والنبوغ والعبقرية للأنبياء[1]. ولست أريد من هذا نفي هذه الصفات عن الأنبياء ولكنني أرى أن كثرة ترديدها والاكتفاء بها إحلال لمفهوم البطولة والنبوغ والعبقرية محل مفهوم الوحي والنبوة مع أن النبوة أسمى بكثير وأرقى طبيعة ونوعاً من النبوغ والبطولة والعبقرية وان كانت لا تنافيها بل قد تندرج هذه الصفات فيها فان هذه الصفات قد يتميز بها أفراد من البشر ممن حولهم من الناس كشدة الذكاء ولكنها على كل حال صفات بشرية عادية ، أما مفهوم النبوة فمبني على اتصال انسان اختاره الله من البشر اتصالاً لا نعرف كيفيته وكنهه بالقدرة الإلهية .

---

(١) حدثني الأستاذ العقاد رحمه الله بمناسبة تسميته كتابه (عبقرية محمد) (ص) فقال : اعترض بعضهم على هذه التسمية وأنا لم أقصد بها نفي النبوة أو القول بأن النبوة عبقرية ولكني قصدت اننا لو تركنا الوحي والنبوة من حياة محمد (ص) جانباً لوجدناه يتصف بالعبقرية التي نستطيع أن نثبت وجودها في حياته للناس جميعاً .

أيمان جديدة !

ومن هذا الباب أيضاً استعمال هذا التعبير الذي تبدأ به بعض الاحتفالات باسم الله والوطن أو باسم الله والشعب أو باسم الله والعروبة أو قول القائل : أقسم بالله والوطن أو أقسم بالله وبالشرف أو بالقومية أو بحياة فلان أو بحياة أولادي ... ان هذه التعابير منبثقة في الأصل وفي البيئة الأوربية التي جاءتنا منها عن تأليه هذة القيم (الوطن، الشعب القومية ، ...) أو تعظيمها تعظيماً يبلغ حد التقديس ووضعها مع الله في مستوى واحد . في حين أن الإسلام يرى في ذلك كله اتجاهاً وثنياً ، فالإيمان بالله هو القيمة العليا المطلقة التي لا تدانيها قيمة وكل ما سواه من القيم المحبوبة أو العزيزة أو المعظمة فرعية وثانوية بالنسبة إليه مهما بلغت منزلتها فلا يجوز أن تقرن معه .

ومن أمثلة ذلك أيضاً استعمال لفظ الايمان في غير مجال العقيدة على سبيل التوسع والتجوز كقول القائل أؤمن بالوحدة أو بالقومية أو بالشعب . فان هذه الكلمة وإن كان معناها اللغوي التصديق بوجه عام قد خصصت للتصديق بالعقائد الدينية الأساسية فتقول أؤمن بالله واليوم الآخر والنبوات ، فاستعمالها في هذه المواطن الأخرى منبثق عن تلك النظرة التي شرحناها والتي تنطوي على تأليه تلك القيم واقامة أصنام جديدة في هذا العصر والتعبير السليم الذي ينسجم مع النظرة الإسلامية

هو أن تقول أؤمن بالله وأحب وطني وأثق بالشعب وأتمسك بالوحدة أو أتوق إليها وأسعى لتحقيقها .

هاتان حالتان ذكرناهما **الحالة الأولى** تكون فيها الألفاظ اصطلاحاً جديداً فحسب ولا يتضمن أي فكرة جديدة ، فيجوز استعمالها ، ومثلنا لذلك بالأحوال الشخصية مع ما أوردناه من ملاحظات على ذلك . **والحالة الثانية** هي أن يكون في استعمال الألفاظ والتعابير الجديدة أو المنقولة إدخالاً لمفاهيم جديدة وانطواء على نظرات أجنبية مختلفة تصل إلى حد الانحراف الأساسي عن الاتجاه الأصيل .

وهنالك **حالة ثالثة** هي أدق هذه الأحوال وأخطرها ، وهي نقل المفاهيم والأفكار من مذهب إلى مذهب ومن نظام إلى نظام ؛ فلكل مذهب ديني أو اجتماعي كالإسلام والمسيحية والشيوعية والديمقراطية تصنيف للمفاهيم والقيم ، ويقابل كل واحد منها تعبير يدل عليه ومصطلح لغوي يفيده ، ولذلك فأنت مضطر حينما تريد أن تنقل المفاهيم والأحكام الإسلامية إلى أصحاب المذاهب الأخرى وإلى الذين عاشوا في بيئة تلك الأنظمة والمذاهب ولم يعرفوا إلا مفاهيمها وتصنيفاتها أن تستعمل ألفاظهم ومصطلحاتهم لتنقل إليهم مفاهيم الإسلام ونظمه ولتمكنهم من تصوره .

لا شك أن في هذه العملية خطراً إذا قام بها أناس لا

يملكون الوعي الكافي والمقدرة على فهم المذهب وتصور العقليتين والوقوف في الموقفين .

ومثال ذلك لو أردنا في بيئة السوفييت الشيوعية أو في البيئة الأمريكية الديمقراطية أن ننقل إليهم مفاهيم الإسلام ونظراته في الحياة بحيث نجعلهم يتصورون نظامه وأحكامه وفلسفته فلا يمكننا بادىء الأمر أن نستعمل تصنيفنا الفقهي المعروف للأحكام إلى عبادات ومعاملات وتقسيمنا المعاملات إلى أبوابها المعروفة وتصنيفات علماء الكلام والعقيدة ونخاطب بها أناساً لهم مصطلحات أخرى وتصنيف آخر للوجود والقيم وللأعمال البشرية وللأنظمة الاجتماعية فينبغي أن نفهم تصنيفاتهم وتقسيماتهم ومقولاتهم ومفاهيمهم ، ثم نحاول عن طريق فهمهم هذا وعلى أسلوبهم أن ننقل إليهم مفاهيم النظام الإسلامي ، وقد يؤدي ذلك إلى تجزئة المفهوم إلى مفهومين أو دمج المفهومين في مفهوم واحد وكأننا نحاول بذلك أن نصب الإسلام في قوالب جديدة دون أن نغير مادته .

الديموقراطية والاشتراكية :

ليس الخطأ ولا الخطر الكبير في هذه العملية وإنما الخطر الكبير أن نأتي إلى مذهب معروف كالاشتراكية سواء قصدنا ما يسميه الماركسيون بالاشتراكية العلمية على حد تعبيرهم ، أو قصدنا مذهباً بعينه من المذاهب الاشتراكية المحددة أو إلى الديمقراطية باعتبارها مذهباً شاملاً له فلسفته ثم نزعم أن تلك

ولكننا في مقابل ذلك لا نستطيع أن نقول أن الإسلام ديمقراطي دون تحفظ وعلى الإطلاق وليس من حقنا ذلك. فإن الديمقراطية باعتبارها نظاماً سياسياً في أوربا اقترنت بأفكار ومفاهيم عن الانسان والمجتمع وانبثقت عن فلسفة لا يقبلها الإسلام وقد تتعارض مع فلسفته ونظرته في كثير من نقاطها. فالديمقراطية مبنية على فكرة أساسية هي أن الفرد هو الأصل في الدولة وهي إنما خلقت لمصلحته وهو حرية مطلقة في تصرفاته سواء في فعاليته الاقتصادية أو الخلقية أو الفكرية، والدولة مهمتها مقصورة على تنسيق حريات الأفراد حتى لا تتصادم. ان هذه الفلسفة تختلف عن نظرة الإسلام اختلافاً كبيراً، فهي تؤدي إلى المساواة بين الإيمان والإلحاد في مجال الفكر وبين الاباحية والتقيد في مجال السلوك الخلقي وبين الرأسمالية المترفة الطاغية والتقييد لمصلحة الجماعة. والإسلام لا يقبل التسوية بين هذه الاتجاهات، ولا يمنح الحرية المطلقة التي تؤدي إلى الباطل والرذيلة والظلم.

ويختلف الإسلام كذلك عن الديمقراطية في نقطة أخرى أساسية: ذلك أن الشعب في الإسلام وإن كانت مصلحته وسعادته هي هدف تشريعه، وكان الناس فيه على اختلافهم متساوين أمام الحق وكانت الشورى ومسؤولية الحاكم هي الأساس في الحكم لكن المرجع النهائي هو الله وحده وهو مصدر السلطة وإرادته المتجلية في القرآن كتابه المنزل هي الحاكمة،

أما الديمقراطية فالشعب فيها مصدر السلطة وإرادته مطلقة وهي الحكم النهائي . نعم إذا أريد بمصدر السلطة أنه هو المرجع في تفويض السلطة إلى الحاكم وأن الحاكم يتسلم السلطة من الشعب لا من نفسه ولا بحكم الوراثة ولا من الله مباشرة فتلك نظرة الإسلام كذلك[1] ولكن الحكم الفاصل بين أفراد الشعب حكاماً ومحكومين حين الاختلاف وميزان الترجيح ومعيار الصحة انما هو كتاب الله الذي حدد المعالم ورسم الطريق لأن الشعب نفسه يخطىء ويصيب ويضل ويهتدي ولكن الناس مع ذلك أي أفراد الشعب عامة هم الرقباء على الحاكم ، ولكل فرد منهم بالنسبة إلى الحاكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصارحة بالحق والوقوف أمام الظلم . وليس الحاكم هو المرجع في تفسير مبادىء القرآن وفهم نصوصه بل المرجع في ذلك العلماء المختصون من أبناء الشعب عامة دون تقييد بالموظفين منهم أو الرسميين وقد رد الإمام علي رضي الله عنه مغالطة الخوارج حين قالوا لا حكم إلا لله لا حكم إلا للقرآن مجيباً إياهم أنه لابد للقرآن من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال[2] أي أنه لا بد من إنسان يمارس الحكم ولا بد من حكم البشر ومن مراقبة الناس لهذا الحاكم ومن أناس يفهمون القرآن ومقاصده ويطبقون أحكامه .

وخلاصة القول اننا إذا اعتبرنا الديمقراطية مذهباً اجتماعياً

---

(١) هذا هو رأي أهل السنة بحثنا (الدولة عند ابن تيمية) ص ١٨ .

(٢) نهج البلاغة عن كلام له في التحكيم .

قائماً بذاته فليس لنا أن نقول انها من الإسلام أو أن الإسلام يقبلها ويستسيغها ويتضمنها إذ هما مذهبان مختلفان في أصولهما وجذورهما وفلسفتهما ونتائج تطبيقهما. ولكننا إذا نظرنا إليها على أنها إتجاه يحارب الفردية والإستبداد والإستئثار والتمييز ويسعى في سبيل مصلحة جمهرة الشعب ويشركه في الحكم وفي مراقبة الحكام وسؤالهم عن أعمالهم ومحاسنهم عليه ، فالإسلام ذو نزعة ديمقراطية بهذا المعنى بلا جـدال أو أن للاسلام ديمقراطيته الخاصة به أي نظامه الذي يمنع استبداد الحكام واستئثارهم ويمكن الشعب من مراقبتهم ومحاسبتهم .

الاشتراكية :

ومثال آخر من هذا الباب هو مثال الاشتراكية فقد راج استعمال هذا التعبير في الرأي العام واستعمله عدد من الباحثين للدلالة على ما في الإسلام من عدالة شاملة لأفراد المجتمع لاتخص فئة من الناس دون غيرهم . وكان هذا الاستعمال موضوع خلاف شديد بين المجيزين والمـانعين . وما قلناه عن الديمقراطية ينطبق على الإشتراكية فإذا فهمنا من الإشتراكية مذهباً شاملاً له فلسفته ومفاهيمه ونظامه الإقتصادي كالشيوعية التي هي أحـد أشكال الإشتراكيـة فإن الاسلام شيء والاشتراكية شيء آخر ولا يمكن أن يقال بهذا المعنى أن الاشتراكية من الإسلام لأنهما في هذه الحال مذهبان مختلفان لكل منهما مبادئه وأسسه . ولكن للاشتراكية معنى آخر

وقد أصبح رائجاً منتشراً في العالم وهو اشراك جميع أفراد الشعب في المنافع والمصالح وعدم استئثار فئة من الناس بالمنفعة وتدخل الدولة في تقييد الفعاليات الإقتصادية -كتحديد حقوق الملكية وثمارها- تقييداً يؤدي إلى العدالة في توزيع الثروة وإلى تكافؤ الفرص بين الناس بحيث يعيشون على مستوى من الحياة يؤمن لهم الحاجات الإنسانية المادية والمعنوية . هذا هو المعنى الشامل لأنواع الاشتراكيات وإن اختلفت أساليبها في الوصول إلى هذه الأهداف . والإشتراكية بهذا المعنى ليست مذهباً كاملاً ، إنما هي إتجاه نشأ في مقابلة طغيان الرأسمالية في أوربا واستئثار أصحاب رؤوس الأموال نتيجة الأخذ بالمذهب الحر في الإقتصاد الذي يعطي للأفراد الحرية المطلقة في المجال الإقتصادي ولا يسمح للدولة أن تدخل ولو أدّى ذلك إلى طغيان طبقة على طبقة أو إلى نشوء طبقة فقيرة محرومة . **والاشتراكية بهذا المعنى لا منافاة بينها وبين الاسلام بل إن الاسلام على طريقته الخاصة يتجه في هذا الاتجاه المؤدي إلى تعميم النفع وإقامة العدالة وإنصاف الناس بل يجيز تدخل الدولة في فعاليات الأفراد الاقتصادية وغير الاقتصادية إذا اقتضت الضرورة أو المصلحة العامة ذلك**[1] . نعم إن للإسلام أسلوبه وطريقته الخاصة به في

---

(١) راجع كتابنا (الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) حيث تجد تفصيلاً لهذا الموضوع .

التنظيم الإقتصادى ولكننا إذا صنّفنا المذاهب صنفين أحدهما مبني على مصلحة الفرد وحريته المطلقة وهو المذهب الفردي والآخر مبني على مصلحة الجماعة أو المجتمع كله وهو المذهب الجماعي أو الإجتماعي فالإسلام مع مراعاة التوفيق بين مصلحة الفرد والجماعة هو أقرب إلى الصنف الثاني . وهذا الإتجاه تدل عليه في اللغات الأوربية كلمة Socialiste وترجمتها الدقيقة إلى العربية **الاجتماعية** ولكنها ترجمت في أوائل هذا العصر بالإشتراكية وهي ترجمة صالحة أيضاً لأنها مشتقة من مادة (ش ر ك) وتفيد المعنى المقصود من اشتراك أفراد المجتمع بالمنافع والفوائد وهي المادة التي منها الشركة والإشتراك وصيغت بإضافة ياء النسب وتاء الإسمية للدلالة على المذهب كالإمامية والمالكية . إن القول بأن الإسلام يخالف هذا الإتجاه الذي اصطلح على تسميته بالإتجاه الإشتراكي معناه في عرف الناس العام إن الإسلام يؤيد الظلم الرأسمالي والإستئثار والطغيان . ذلك أن قوام الإشتراكية وجوهرها وعنصرها الأساسي جواز تدخل الدولة في تقييد فعالية الأفرادالإقتصادية وتقيد الملكية وما ينتج عنها من حقوق لمصلحة المجتمع منعاً للظلم وإنصافاً للناس وإشاعة للرحمة والخير بين الناس هذا هو الصميم من جوهر الإشتراكية وما وراء ذلك من التفصيل كالتأميم أو غيره أمور مختلف عليها بين أصحاب هذا الإتجاه. والإسلام كما قلنا يقول بالتدخل ومن ذلك منع الدولة للاحتكار وإلزامها تجار الأقوات أن يبيعوا بسعر عادل أيام المجاعة

وأخذها من أموال الأغنياء مالاً غير الزكاة إذا كانت الدولة في حــالة حرب للدفاع عن حوزة المسلمين أو كان في الناس فقراء ولم تكفهم الزكاة أو غير ذلك من الحاجات . وقد أتينا بهذه الأمثلة لأنها كانت معروفة ولها ذكر في كتب الفقهــاء والأمر ليس مقصوراً عليها ولا محصوراً فيها وإنما هي للتمثيل فقط ولبيان أن الإسلام يقول بتدخل أولى الأمر أي الدولة لإحقاق الحق بل للرحمة بالضعفاء ولو كان ذلك فوق العــدل واكثر من العدل . ولا يتصور بحال من الاحوال ان تؤدي احكام الاسلام الى موت فريق من الناس جوعاً او وقوعهم فريسة للبؤس والفقر والمرض وتنعم فريق آخر من الناس في الوقت نفسه بالملاذ والطيبات والكماليات لأن هذا مخالف لأهداف الاسلام الواضحة في الكتاب والسنة في مثل قول الرسول ﷺ « المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله « ان قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا فصار لكل رجل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ما تصنع قال هو مكاني أصنع فيه ما شئت . فان اخذوا على يده نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا . » وقوله أيضاً « ان الاشاعرة كانوا اذا أمحلوا أو افتقروا جمعوا ما عندهم واقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم » وحديث (من كان معه فضــل ظهر ... الخ) المتقدم ذكره . ومن المعلوم الثابت ان نظام الاسلام لا يقبل ان يكون في المجتمع من يموت جوعاً او يحتاج مهما يكن دينه اذا كان

بيت
ابعاً لدولته ولذلك كان الخلفاء الراشدون يخصصون من
لمال ما يسد حاجة الفقراء من الكتابيين غير المسلمين كما كانوا
سدون حاجة الفقراء من المسلمين .

ولم يبق هذا الاتجاه كلاماً عاماً ومواعظ اخلاقية بل فصله
لفقهاء احكاماً تنفذ ويعمل بها الحكام ويستفيد منها الناس
ويجدها الباحث مفرقة في كتب الفقه في أبواب عديدة كما
يجدها في القواعد العامة . وألصقها بموضوعنا الضرر يزال، ولا
ضرر ولا ضرار ، ويتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر
العام ، ومثلوا لها بوجوب نقض الحائط المملوك الذي مال إلى
طريق عامة دفعاً للضرر العام . ومن هذا الباب جواز الحجر
على البالغ العاقل الحر في ثلاثة مواضع عند أبي حنيفة المفتي
الماجن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس ، وعلى السفيه مطلقاً
عند الصاحبين دفعاً للضرر العام [١] وليس الحجر الا تقييد
حرية المحجور عليه في أمور هي في الأصل من حقه شرعاً دفعاً
للضرر الذي يمكن ان يلحقه هو بنفسه أو أسرته أو المجتمع العام.
ويذهب ابن تيميه الى أبعد من هذا فيستنتج من كون بعض
الصناعات كالطب والنجارة ضرورياً جواز إجبار أصحابها
والمختصين بها على العمل إذا امتنعوا وكان الناس بحاجة الى
صناعتهم ويعطون اجر المثل [٢] .

---

(١) راجع القواعد العامة في كتاب الاشباه والنظائر لابن نجيم ولا سيما
قاعدة الضرر يزال .

(٢) راجع كتابنا (الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) وهذا ما
يسمى بالفرنسية Socialisation du travail

ومع كل ما ذكرنا من وجود نزعة توافق الديمقراطية والاشتراكية في الاسلام فاننا لا نرى أن نجعل هذه الشعارات البارزة في حياتنا وهذه العناوين هي عناوين مجتمعاتنا ودولنا التي نلخص بها نهضتنا ونصف بها حضارتنا لأنها حينئذ تكون عناوين خاطئة وتلخيصاً مشوهاً اذ تشير الى بعض صفات الحضارة الاسلامية وتهمل صفات ومقومات أخرى أهم منها بل نرى إن في الإستمرار في هذه الخطة خطراً على الإسلام لما في ذلك من إحداث التباس بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم مذاهب أخرى تختلف عنه اختلافاً أساسياً .

إننا نغفل عن مبدأ اساسي خطير هو ان للانظمة السياسية والاقتصادية في كل بلد وفي كل حضارة أسساً اعتقادية تبنى عليها وليست هي الا مظاهر خارجية لعقيدة او فلسفة تؤمن تلك الحضارة وتقوم عليها وليست هذه الأنظمة إلا تعبيراً سياسياً او اقتصادياً لتلك الفلسفة وتلك الحضارة . فاتخاذ الاشتراكية عنواناً لحضارة وصفة بارزة مميزة لدولة مبني على فلسفة تعتبر الانتاج محور الحياة والمادة أصل الوجود وليس العلم والعقل إلا خادمين للانتاج وتحسين مستوى الحياة المادي وليس الفرد الإنساني إلا جزءاً من هذه الآلة الضخمة التي هي المجتمع ممثلاً في الدولة يخضع لأوامرها ويبقى حتى في مأكله ومشربه ومسكنه وفيما يسمع من أخبار او يقرأ من كتب وصحف تحت رقابتها الشديدة . إن وراء هذه الانظمة عقائد انبثقت هي عنها ومفاهيم ونظرات في الحياة

تتصل بها اتصال الفروع بالجذور ولذلك فاننا حين نجعل هذه
الشعارات عنواناً وحيداً لنهضتنا ونكررها وحدها على مسامع
الجمهور إنما نعلن ضمناً أننا ندين بتلك العقائد ونأخذ بتلك
النظرات والمفاهيم في الحياة وأننا بنتيجة ذلـــك نتخلى عن
مفاهيمنا وعقائدنا ونظرتنا الى الحياة المستمدة من ديننا وتراثنا
الحضاري او على الأقل نغفلها ونهملها . وفرق كبير بين أن
نتخذ من التشريعات ما يكفل العدالة في توزيع الثروة ومـا
يكفل حياة العاجزين عن كسب ما يكفيهم وبين ان نجعل
عنوان نهضتنا الأول وصفتها الأبرز هي الاشتراكية وبذلك نجر
الناس الى أن يجعلوا هدفهم الأول في الحياة رفع مستوى
الحيـــاة المادية وتحسين المعيشة دون أن يكون لرفع مستوى
الأخلاق وللقيم الخلقية والروحية أي مكان في حياتهم وفي
نظامهم فنترك بذلك الفراغ لشتى العقائد الالحادية والمذاهب
المادية والاباحية . إن ثورة الاسلام الاجتماعية شاملة تبدأ من عقيدة
الايمان بالله والمساواة بين الناس أمامه لأنهم من أصل واحد وهم
عباده وتنبثق عن هذه العقيدة ومعانيها ثورة اجتماعية غايتها
إقامة العدالة بين الناس وتحقيقها من الناحية الاقتصادية بحيث
لا يعيش فريق في البذخ والترف وآخرون في الشقاء
والحرمان بل تأخذ الدولة من أموال الأغنياء ما تسد به حاجة
الفقراء والعاجزين عن الكسب فللناس حقوق في المـــال ولو
كان خاصاً .

هذه اشتراكية ليست غايتها المال وتوزيعه انها فرع لثورة روحية خلقية هدفها ارضاء الله بتحقيق العدل بين عباده والاحسان إليهم في نظام خاص فهي مسبوقة ومقترنة بدعوة خلقية روحية . إنها إذن لا تصلح أن تكون العنوان الشامل المعبر عن نظام الاسلام ودولته وحضارته ولكن في الاسلام من جهة أخرى ما يقابلها ويحقق الأهداف المشروعة منها. إن المهم في كل هذا أن تحفظ للاسلام خصائصه وذاتيته بحيث لا يلتبس بغيره وان نعرف بعد ذلـــك كيف ننقله للآخرين بحسب مفاهيمهم الشائعة ونميز ما بينه وبين المذاهب الأخرى من موافقات ومفارقات .

تصحيح المفاهيم

إن عملية تصحيح المفاهيم المشوهـــة استمرت في جميع العصور الإسلامية فكان كل تشويه للحياة الإسلامية أو للمفاهيم الإسلامية يصاحبه ويقابله أو يتبعه تصحيح يعيد الأمر إلى نصابه . فكان حماة العقيدة الإسلامية من العلماء في كل عصر يردون المفاهـــيم الدخيلة والأفكار المدسوسة والانحرافات الحادثة . وألفت مؤلفات كثيرة في مختلف العصور لبيان البدع المستحدثة في الدين وانكارها والرد عليها . وقد قسموا الأمور المستحدثة أو المبتدعـــة إلى أقسام فأما ما كان منها متعلقاً بالعادات كأنواع الأطعمة والأشربة والألبسة وأساليب العمران وما إلى ذلك فليست من باب البدع المنكرة في شيء اللهم إلا

أن تكون مما يدخل تحت نص شرعي يتضمن الأمر بفعل أو
النهي عنه وما سوى ذلك متروك للناس كاستعمال الآلات
والأدوات المستحدثة كآلات الحراثة أو الصناعة أو وسائل
النقل والمواصلات وغير ذلك مما تتجدد أشكاله وأنواعه في
شتى مرافق الحياة فهذا لا يطلق عليه لفظ البدعة بالمعنى
المذموم بل هو على عكس ذلك مما يحمد ويستوجب شكر الله
لما فيه من الخير لبني البشر. ومن المستحدثات المبتدعة ما يتعلق
بأمر العقيدة وهو أخطرها أثراً وأسوأها نتيجة وهذا النوع
لا يقتصر في رأينا على العقيدة بالمعنى الضيق لهذه الكلمة كما
كان يفهم منها بل يتناول جميع الأفكار والاتجاهات الأساسية
والمبادىء العامة للإسلام ومفاهيمه في جميع آفاق الحياة.
والنوع الثالث من المستحدثات المبتدعة يتعلق بالعبادات والقاعدة
في العبادات انها توقيفية أي يوقف فيها عند النص لا يزاد فيها
ولا ينقص.

إن هذا التصحيح كان يجري في كل عصر على يد العلماء
وأئمة الإسلام الذين كانوا يتنبهون للإنحرافات الدخيلة أو
الطارئة وقد تكثر هذه الانحرافات والتشويهات في بعض
العصور فيقيض الله لذلك من المجددين من يضطلعون بعبء
هذا التجديد برد الدخيل وتصحيح الأفكار وتقويم الإعوجاج
وإعادة العقائد والمفاهيم إلى أصلها من الكتاب والسنة. ومن
هؤلاء المجددين الكبار شيخ الإسلام ابن هذا البلد (دمشق)

والذي تضم أرض جامعتها [1] رفاته وهو من أعظم العقول الإسلامية التي برزت في تاريخ الإسلام وكان متعدد نواحي الجهاد وأهم صفحات جهاده عمله في صد الهجمات والإنحرافات عن الإسلام وعقائده أمام العقلية اليونانية والإتجاهات الباطنية وتصحيحه للمفاهيم وإعادتهـا إلى أصلها من الكتاب والسنة والإستعانة بفهم الجيل الأول من الصحابة سواء في ميدان الفقه أو العقائد أو العبادات .

نحن اليوم أشد ما نكون حاجة إلى هذا التصحيح سواء أكان يتناول الجوانب التي تأثرنا فيها بالفكر الأوربي أم التي تأثرنا فيها بعقلية الشرق في العصر الماضي والتي هي مزيج من العقلية الإسلامية والعقلية اليونانية والفارسية والهندية وغيرها مما سبق الإسلام ، ذلك المزيج الذي تردى في أشكال ضيقة جامدة مختلطة مضطربة . نحـــن في حاجة إلى بعث لأصول الإسلام وإلى عودة إلى مصادره الأولى وإلى ما فهمته أجيال من العلماء من الفهوم الصحيحة في كل عصر ولا سيما فهم الجيل الأول من الصحابة الذي حفظت لنـا كتب الحديث والفقه الشيء الكثير منه لنفهم في ضوئها وفي ظروف مشكلاتنا القائمة نصوص الكتاب والسنة . نحن في حاجة إلى أن نبني تفكيرنا من جديد ونتخلى عن كثير من الأفكار التي ظنناها من البديهات واستسلمنا لها وربينا عليها في تعليمنـــا الابتدائي والثانوي والجامعي سواء في حياتنا الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية انها عملية ضخمة ولكنهاضرورية وجذرية أساسية . وحياتنا ومساهمتنا الفعالة في ميدان الحضارة الإنسانية متوقفة

---

(١) يقع قبر ابن تيمية رحمه الله بين مباني جامعة دمشق .

عليها . فالبشرية اليوم أمام مذاهب عديدة وفي كل مذهب منها جانب من الحق مقترن بجانب من الباطل ، في كل منها محاسن ومساوىء ولا يصلح واحد منها لحل المشكلات الإنسانية حلاً أساسياً موحداً منسجماً . والإسلام هو الذي يستطيع أن يجمع بين الرقي المادي والخلقي الروحي في تناسق وانسجام وأن يقيم للتشريع الظاهري وللأنظمة الإجتماعية أساساً في النفس والضمير وان يجعل للروح التي تهذب وتنمى فعالياتها سنداً مادياً واقعياً ويفسح للفرد المجال أن يرقى مادياً وروحياً ولكن في إطار اجتماعي غير استبدادي أو تحكمي قسري ويجعل الحياة وحدة لا تتجزأ تتصل جوانبها المتعددة من السياسة والاقتصاد إلى الأخلاق والعبادة ومن العقيدة إلى التشريع وتنسجم جميعاً في هذه الوحدة الحيوية من غير تداخل ولا التباس . وإذا كانت المذاهب المختلفة من دينية واجتماعية يرمي كل منها إلى هدف حيوي هام كالعدالة الاجتماعية أو الحياة الروحية أو حرية الفرد الإنساني فإن الإسلام جمع هذه الأهداف جميعها ونسقها وأقام التوازن فيما بينها وربطها جميعاً بقوة تجمعها وهي الله الخالق .

وإن من واجب المسلمين - علمائهم ومثقفيهم ومؤسساتهم العلمية أن يعملوا على تصحيح المفاهيم وإبراز الإسلام في صورته الصافية حتى يقف بقوة أمام الأنظمة القائمة اليوم في العالم . وحتى يتكون وعي إسلامي يحمل رسالة الإسلام فيحمل إلى الإنسانية السعادة والسلام وهذا ما سنعالج بحثه في الفصل التـــالي .

نحو وعي إسلامي جديد (١)

تقف أكثر البلاد الإسلامية في هذه الحقبة من الزمن موقفاً متشابهاً ، وتواجه في حياتها مشكلة أساسية تقتضي الحل ، ذلك أنها خرجت من معارك التحرر من الاستعمار والنفوذ الأجنبي في المجال السياسي ، واجتازت كذلك مرحلة التحرر من عهد الانحطاط ، واستقبلت في تطورها هذا مرحلة جديدة هي مرحلة البناء . فما هي عناصر هذا البناء وما شكله وما هندسته وتخطيطه؟ وما هي الحضارة التي يجب أن تقيمها وتملأ بها الفراغ الحادث من انهيار الهيكل القديم من جهة، والهيكل الذي فرضه المستعمر عليها يوم كان محتلاً لأرضها ؟ إن مرحلة الوعي الذاتي ومرحلة البناء والإبداع هي من أخطر المراحل التي تمر بها الأمم وأدقها ، وهي المرحلة التي تمر بها بلادنا العربية كما تمر بها سائر الشعوب الإسلامية .

إن لهذه المشكلة تاريخاً طويلاً لن نتحدث عنه ، ولكن لا بد لنا من استعراض الفصل الأخير من قصتها ، والالمام بالعهد

(١) ألقي هذا البحث في قاعة المحاضرات في الأزهر .

الذي سبق مرحلة الوعي هذه حتى نستطيع فهمها فهماً صحيحاً والسير في توجيهها على بصيرة وهدى .

عهد الانحطاط

لقد سبق التقاءنا بالحضارة الأوربية في العصر الحديث، عهد تشوهت فيه صورة الإسلام وتغيرت معالمه وقلبت قيمه وضيقت مفاهيمه وأسيء تطبيقه . إن الإسلام الذي عرفناه في عهده الأول الزاهر : قوة فعالة محررة للإنسان من الخرافة والوثنية ومن الظلم والاستبداد ، قفزت به الى صعيد جديد للانسانية ، وأفق واسع للحضارة التقت عليه شعوب وعبقريات، فأقامت معاهد للعلم ومعالم للعدالة ، وفسحت للنفس مدارج السمو والارتقاء في إطار دولة، الراعي فيها والرعية يعتبرون أنفسهم عباداً لله ، يأتمرون بينهم بمعروف ويتشاورون ، لكل منهم حقوقه وعليه واجباته . إن هذا الإسلام انقلب الى جدلية كلامية في العقيدة ، وتفكير خرافي في النظر الى الكون ، وعبادة سلبية اعتزالية شكلية ، وصوفية أعجمية تعتزل الحياة وتفر من معركتها، واستبداد في الحكم ، وركود في الحياة الاقتصادية ، وشكلية فقهية ونصوصية ضيقة بعيدة عن الفهم الاسلامي الأول. فتعطل جهاز الاسلام الفعال عن العمل بسبب ما شابه من الشوائب ، وما داخله من غريب العناصر ، وما أصابه من تعطيل بسبب العقول القاصرة والأيدي التي لم تحسن الاستعمال .

واقترنت هذه الحال التي تردى إليها العالم الإسلامي—والعالم العربي في جملته — بنظام للتعليم متناسب معها يثبتهافي وضعها، ويدفعها الى الاستمرار على ما هي عليه بدلاً من ان يكون سبيلا لانقاذها .

لقد كانت طريقة التعليم قائمـــة على الحفظ واستظهار العبارات ، فكان طالب العلم يحفظ عدداً من المتون ، أي من النصوص الموجزة في كل علم ، في عبارات مكثفة مرصوصة مبلورة دون ان يفهمهـــا ، ثم ينتقل في طور آخر الى تفهمهافي شروح متدرجة في التفصيل والبسط .

ما المادة العلمية ، فكان علم التوحيد أو العقيدة الاسلامية مزيجاً من القضايا الفلسفية والكلامية التي عرضت للمسلمين حين اصطدموا بالفلسفة اليونانية بعيداً عن ان يبعث عقيدة القرآن قوية حية في النفوس ، وأما الفقه الذي كان مفخرة الاسلام ، وعلى أساسه قامت الفتوحات ونظمت البلاد الواسعة أحسن تنظيم ،فكان يدرس في نصوص ابتعدت كثيراً في بعض الأحوال عن أصولها من الكتاب والسنة من جهة وعن وقائع الحياة من جهة أخرى ، وفي جو مذهبي ضيق ،وغدت تلك النصوص التي هي آراء الفقهاء خلال العصور وخاصة المتأخرة منهـــا هي المرجع النهائي للأحكام .

وأما أصول الفقه فكان يقرأ لا للاستعانة به على استنباط الأحكام بل للاستظهار به في تأييد الآراء المذهبية الخلافية ،

الخلافية ، وكان يقرأ في كتب عقيمة الأساليب بعيدة جداً عن توليد الملكة الفقهية .

وأما القرآن فقد أصبح بينه وبين المسلمين حجاب كثيف من الإسرائيليات والمذاهب الكلامية والشروح اللفظية والنكت البلاغية والمسائل الفلسفية ، التي حشيت بها أكثر التفاسير خلال العصور ، وأخذ كل واحد منها لون الثقافة الغالبة على العصر الذي ظهر فيه المؤلف الذي كتبه .

وأما الحديث فقد قلت العناية به ، لأن قراءته كانت للتبرك لا لاستنباط الأحكام ، بعد أن سد باب الاجتهاد .

وأما علوم العربية فقد أهمل منها اللغة والأدب ، وهما مفتاح الكتاب والسنة ، وبهما تفهم نصوصهما ، وعني الناس بصناعة النحو لحاجتهم إليها في الاستدلالات المذهبية في الفقه والكلام ، وعنوا بنوع من كتب البلاغة هي أبعد ما تكون عن تذوق البلاغـــة وأساليبها العربية ، ككتاب التلخيص للقزويني وشروحه المعقدة التي هي أقرب إلى المنطق والفلسفة منها إلى الذوق الأدبي .

وأما آفاق العلوم الأخرى التي فتحها القرآن للناس بتوجيه نظرهم إلى آيات الله في الكون والإنسان من العلوم الطبيعية المختلفة ، التي ازدهرت بازدهار الحضارة الاسلامية فقد غطى عليها النسيان وأبعدها عن الأنظار بعد الناس عن معاني القرآن.

هذا وإن ما وصفت به عصر الانحطاط من صفات ، وما ذكرته عن طرائـــق التعليم ومادته ، إنما هو من قبيل الحكم العام الغالب ، ولا يمنع هذا أنه لم يخــل عصر من العصور الاسلامية من بقع ضوئية نيرة ومن أفراد لم تقطع صلتهم بينابيع الاسلام الأصيلة ، يستمدون منها الفهم الصحيح ويسيرون على النهج القويم .

الالتقاء بالحضارة الغربية : عصر الاستعمار :

في مثل هذه الحال التي وصفت كان التقاؤنا بحضارة الغرب الناشطة التي كانت تكتسح بموجتها الاستعمارية والحضارية بقاع الأرض . لقد كنا كما يقول المفكر الاسلامي الكبير مالك بن نبي الجزائري في حـــال القابلية للاستعمار ، وكانت شعوب أوربا في حال الاستعداد للاستعمار .

فكان عصر الاستعمار الذي امتد في البلاد العربية والإسلامية عامة ، كما امتد في غيرها أيضاً مدة طويلة تختلف من بلد إلى بلد ، وكان له من النفوذ المعنوي والحضاري امتداد زمني أوسع مما امتد إليه الاحتلال الأرضي المادي ، وليس حديثنا الآن عن الجانب السياسي لهذا العصر وما أحدثه الاستعمار من يقظة سياسية وثورات شعبية انتهت في أكثر هذه البلدان إلى التحرر والاستقلال ، ولكننا نريد أن ننظر إليه من الجانب الفكري والحضاري .

لقد كان الذهول والاندهاش أول رد فعل لهذا اللقاء بين مجتمعنا الراكـــد الساكن الملتف حول نفسه ، العاكف على جزئيات الحياة في آفاقها الضيقة ، والمجتمع الأوربي الهائج المائج بعقله المتفتح ، وغاياته النفعية المادية وقدرته الصناعية وقوته العسكرية . ولكن هذا الذهول ما لبث أن خفتّ حدته وتكشف عن نزعتين أو اتجاهين :

أحدهما : الإتجاه المحافظ المغالي في محافظته ، يدافع عن الكيان كما هو بخيره وشره ، بأصيله ودخيله ، بمــا فيه من عناصر أساسية جوهرية ثابتة وعناصر ثانوية مؤقتة ، لا يقبل في ذلك صرفاً ولا عدلاً ولا يشعربأن ثمة مشكلة أو مشكلات تتطلب منه حلاً .

أما الاتجاه الثاني : فقد كانت تفرضه سنة الله في المجتمع فقد بدأ المجتمع الإسلامي يأخذ عن الغرب وينقل ، وطفق يقتبس ويقلد ، مبتدئاً في ذلك بنقل المظـــاهر ، وتقليد الأشكال ، واقتباس الماديات دون أن يكون ذلك التقليد عن وعي وتمييز بين ماهو أساسي أو غير أساسي من هذه الحضارة، بين ما له ظروفه الخاصة في الغرب ، وما هو إنساني عـــام أو ما له جذور محلية لا يعيش دونها إذا نقل .

ثم انتقل هـــذا الغزو من الظواهر إلى البواطن ، ومن الماديات إلى المعنويات ، ومن السطوح إلى الأعماق ، ومن الآلات والمرافق إلى الأفكار والمفاهيم ، ومن العادات إلى القيم

والمقاييس الخلقية ، وانقلب ذلك التقليد السطحي غير الواعي بالتدريج إلى تقليد يعي ما يصنع إلى حد ما ، واشتد الغزو وأعقب الإحتلال الأرضي أو سبقه أحياناً غزو فكري حضاري ، واقترن بالإلتحاق السياسي التحاق البلاد العربية والإسلامية بحضارة أخرى غريبة عنهم ، ودبّ فيها وعي جديد ولكن لذاتيتهم بل لذات غريبة حلت فيهم بقدر ما كان ذلك في الوقت نفسه إبتعاداً عن حضارتهم الأصلية وخصائص فطرتهم التي كوّنها التاريخ فيهم .

إن هذا الغزو الحضاري أحدث في المجتمعات الإسلامية - ومنها العربي - أزمة جذرية عنيفة وثورة نفسية فكرية ، فكان الشك أو الجحود لأسس حضارتنا ومعتقداتنا ولقيمنا ومفاهيمنا وتاريخنا . وغمرت هذه الموجة من الشك ولا تزال طبقة كبيرة من المثقفين في حدود متفاوتة بتفاوت تفاعلها في نفوسهم . وكان ذلك طبيعياً في زمن جاءهم فيه النور من نافذة واحدة هي نافذة الغرب، وكان الإسلام محجوباً عنهم بحواجز من مخلفات العصور وتشويهها . ولذلك كانت هذه الثورة أشد ما تكون في نفوس بعض الناشئين في الثقافة القديمة - ثقافة عصر الإنحطاط الذي وصفنا - بسبب شدة الصدام والصراع الحادث في نفوسهم بين الصورة المشوهة الضيقة الأفق التي تلقفوها في بيئتهم الثقافية ، وعرفوها على أنها هي الإسلام ، والصورة الحية الناضرة الواسعة الأفق التي

واجهتهم بهـــا الحضارة الغربية . وكأنهم أرادوا بالتعبير عن ثورة نفوسهم على الثقافة القديمة والحضارة الموروثة أن يرفعوا عن أنفسهم معرة نقص توهموه ، ويردوا على ما يشعرون به من غضاضة الإنتماء إلى تلك الثقافة ، ويظهروا بمظهر من فهم الجديد ووعاه ووقف موقف الرائد المرشد من قومه وأهله [1] والأسماء الكبيرة المعبرة عن هذه المرحلة والدالة على هـــذا النوع من التفاعل مع حضارة الغرب في نهضتها الحديثة منذ خمسين سنة كثير منها – إن لم يكن أكثرها – من هذه الفئة من الناس . ومن الغريب أن لهذا النوع بقايا متخلفة ظهرت الآن وأدركت ، فكـــأنهم ولدوا بعد حمل طالت مدته ، وظهروا في أيام انقضت فيها تلك المرحلة فجاؤوا كثمر ولى أوانه فلا تزال تحمل إلينا المطابع كتباً يصر مؤلفوها على أنهم من العلماء أو من خريجي الأزهر ، ليثبتوا في كتبهم براءتهم من الأزهر وثقافته وليثوروا ، حين هدأت الثورات ، على الأسس التي قامت عليها الثقافة الإسلامية أو حضارة الإسلام حتى في أوج ازدهارهـــا وأنصع صفحاتها ، بل منذ عصور الإسلام الأولى . ولكننا لا نستطيع أن ننكر كذلك ، أن جمهرة المصلحين المجددين – بحق - كانوا كذلك من هذه الطبقة التي نشأت في الثقافة القديمة فكانوا أقدر على الإصلاح والتجديد والتميز من غيرهم .

---

(١) هذه الظاهرة هي التي تبـــدو في كتب طه حسين الأولى وفي كتب القصيمي وبعض مؤلفات خالد محمد خالد ومحمود أبو رية وأمثالهم على تفاوت في الزمن ومراحل التطور وظروف التفاعل الشخصي .

خصائص هذه المرحلة

لقد كان لهذه المرحلة – مرحلة النقل والتقليد والغزو الفكري – خصائص متعددة :

١ – أنها كانت تقوم أيضاً على أساس نفسي من الإعجاب بالغرب وإكباره ، بل تقديسه والإستشعار بالنقص .

٢ – ولذلك كانت تقوم أيضاً على الأخذ بالمثل العليا التي اتخذها الغرب مثله وغاياته في الحياة ، واتخاذ قيمه في الأخلاق ومقاييسه في الحياة أساساً لحياتنا ، بل اتخاذها مقاييس وقيماً نقوّم بها تراثنا وحضارتنا وديننا .

فكثرة الإنتاج ، ووفرة المال ، وتحقيق اللذة ، ورفع مستوى الحياة المادية ، والحرية التي لا تقيدها الأخلاق ، والعلمانية أي إقصاء القيم الروحية الدينية عن الحياة ، كل أولئك غايات أساسية للحياة . وليست الديمقراطية الغربية والإشتراكية الشيوعية إلا مركبات متنوعة لتلك العناصر والقيم وأشباهها .هذه هي القيم التي بها نصحح الأشياء ،ونقوّم الأعمال ونزن المذاهب .

٣ – وعن هذا الطريق انتقلت الينا أفكار خاطئة قبلناها على أنها بديهيات مسلمة وزيناها بألفاظ أحطناها بهالة من السحر ، كالتقدمية والتطور والتجديد ، وقبحنا ما يخالفها بألفاظ جعلناها منفرة .

ونقلنا عن الغرب مشكلات نشأت في ظروف تاريخية خاصة به في مراحل تطوره فجعلناها مشكلات لنا ، وهي ليست كذلك في الحقيقة ، أو لم تكن كذلك يوم نقلناها على الأقل . ومن هذا القبيل مشكلة الصراع بين الدين والعلم أو بين رجال الدين ورجال العلم ، ومشكلة الدين والمدرسة أو العلمانية . وفهمنا كثيراً من الأمور من خلال مفاهيم حضارة الغرب ، فللغرب مفهوم خاص للدين تكون من ظروفه التاريخية من جهة ، ومن طبيعة ديانته من جهة أخرى . قد تكون لنا مشكلات مشابهة ولكن ظروفها مختلفة وطبيعتها وطريقة حلها مختلفة أيضاً .

(٤) ولقد كان من خصائص هذه المرحلة أن بعثت الحركة والحيوية فينا على كل حال وكانت المحرض على السير وعلى التأمل والتفكير وعلى تغيير الحال . وقد أحدثت وعياً مبدئياً وإن كان هذا الوعي أجنبي اللقاح غريب المصدر . وكانت له في أول الأمر وفي بعض الأجيال مظاهر منحرفة انحرفت عن العروبة وخصائصها كما انحرفت عن الإسلام في مبادئه واتجاهاته ، ولا تزال عقابيل هذا المرض وآثار هذه التبعية للغرب بادية حتى اليوم في كثير من نواحي تفكيرنا وأدبنا وفننا وعاداتنا الاجتماعية . وهذا الإنحراف عن جادة العروبة ونهج الإسلام ، بل عن نهج الأديان السماوية كلها ، كثيراً ما يخفى ويستتر ، ذلك ان الدعوة إلى الإلتحاق بالأجنبي في الأرض ، أي إلى الإحتلال أو استمراره خيانة فاضحة ، ولكن الدعوة

إلى الإلتحاق في الفكر والحضارة وإلى الإحتلال الفكري كثيراً ما تظهر بمظهر التحرر أي التحرر من الماضي ، ومظهر التقدم والجدة . وهذا الخفاء يشتد حينما يفصل أصحاب هذه الدعوة من الطبقة المثقفة بين الأمرين ، فيحاربون الاحتلال المادي ويدعون إلى التحرر السياسي ، ويدعون في الوقت نفسه إلى الاحتلال الفكري والالتحاق العام بالأجنبي واحتذاء مثله وحضارته ، وكأنهم بذلك يمهدون لأنفسهم ليحتلوا مكان الأجنبي في القيادة ولكن بالروح نفسها التي كان يحكم بها وبمبادئه وفلسفته ونظرته إلى الحياة .

لقد كانت المادية بشتى مذاهبها والالحاد في مختلف صوره من آثار هـذا الوعي المنحرف ، ومن مظاهر نفوذ حضارة الغرب وتأثيره الفكري الممتد في حياتنا . ومن هذه المظاهر أيضاً : انتشار كثير من المفاهيم الخاطئة في الحياة التي هي أثر من آثار انحلال بعض عرى المجتمع الغربي ، أو الاتجاهات الخاطئة لحضارته أو ضعف مؤسساته أو تنظيماته الاجتماعية ، وهي في الوقت نفسه مجافية للمفاهيم العربية الصحيحة ومنافية لمبادىء الإسلام . ومنهـا أيضاً عرض تاريخنا وعقائدنا ومؤسساتنا الاجتماعية من خلال هـذه المفاهيم الخاطئة ، اقتباساً من الفهم الأجنبي الخاطىء ، أو المنبعث عن هوى أو عصبية أو غرض .

ومن ألون هذا الانحراف ومن أشد أمراضه الفتاكة : كثير

من المفاهيم التي شاعت في بيئاتنا عن الفن والأدب ، والمنبثقة عن نظرة الغربي إلى الحياة وفلسفته فيها ، وعقيدته الحقيقية لا الظاهرة . « إن العقيدة الحقيقية للغربي سواء أكان ديمقراطيا رأسماليا أم اشتراكيا شيوعيا ، ليست هي المسيحية — بل هي وثنية جديدة لها معابدها وأصنامها وكهنتها » كما يقول الأستاذ محمد أسد في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) . إن لذة الفرد وشهواتـــه في شتى صورها ، وحبه للاستئثار والمصالح المادية للطبقات والشعوب وما يتبع ذلك من كثرة الانتاج ووفرة الوسائل المـــادية ، هي الغايات الحقيقية لهذه الحضارة والبواعث النفسية لأصحابها ، وليس الخلاف بينهم إلا في طريق الوصول اليها وطريقة توزيعها ، أو في التنافس عليها .

إن مبادىء النصرانية الروحية وعقائدها وتعاليمها الخلقية واتجاهاتها مخالفة مخالفة أساسية جوهرية للحضارة الغربية . إن الفن والأدب ليسا في الغرب إلا تعبيراً عن نفسية المنتمين لهذه الحضارة ، وتصويراً لمشاهدها ، وعرضاً لها دون فتور على الاستمرار والدوران إن أكثر ما يكتب من أدبنا ويصاغ من فننا ليس إلا اقتباساً وتقليداً لذلك الأدب ، إنه يخالف من حيث الأساس والجوهر ، المفاهيم الأصيلة في الأدب العربي كما تصورها العربي في الجاهلية وبعد الإسلام ، إنـــه صورة عن حياته ودوافعه المثالية حتى في ألوانها الواقعية .

(٥) إن هذه المرحلة التي وصفنا خصائصها مرحلة طبيعية لم يكن بد – في الظروف التي كنا فيها – من أن نمر بها ، ولكنها استغلت خــارجياً من بعض المستشرقين والأجانب عموماً لتوجيهها وجهة تقضي على خصائصنا وتحول دون بعث حضارتنا وظهور ذاتيتنا ، وعودة ديننا إلى صورته النقية الصافية المنتجة وما تضمنه من مثل عليا ، واستغلها كذلك داخلياً أصحاب الأهواء والشهوات والمتاجرون على حساب أوطاننا وتراثنا وديننا .

وإن تأثير هذه المرحلة أعمق من أن يذهب بسرعة ، وقد كان في بعض نواحيه مفيداً ، وفي بعضه الآخر ضاراً ضرراً خبيثاً ، شأنه في ذلك شأن كثير من المصائب والنكبات ، وأن هذا التأثير الذي بيناه أضيفت اليه بعد حقبة من الزمن عوامل جديدة جعلتنا ننتقل في تطورنا إلى مرحلة جديدة :

١ – ذلك أن النضال السياسي للتحرر من الاستعمار قد اشتد ، والثورات في كل بلد توالت وانتهت في كثير من البلاد العربية والاسلامية إلى الانفصال عن الأجنبي والاستقلال ، وقد أوحى الظفر في معركة الإنفصال المادي فكرة الانفصال المعنوي والاستقلال الروحي .

٢ – وكنا في مرحــلة الإقتباس والتقليد نحتذي حذو غيرنا في إحياء التاريخ والتراث ، والإعتزاز بالأمجاد والمبادىء الصالحة للانسانية والصفحات الناصعة من حضارتنا . وكان

ذلك ينتشر مع إنتشار حركة العلم والتثقيف ، فكان لما أحيينا من تراثنا ونشرنا من مطوي صفحات تاريخنا ، ورأينا من روعة مبادئنا وحضارتنا ، أثر في إشعارنا بكياننا المعنوي وذاتيتنا .

٣ – أضف إلى ذلك ، أن استمرارنا في تفهم معارف الغرب والإطلاع على مكنون تاريخه وأسس حضارته ومختلف مذاهبه الفلسفية والإجتماعية زادنا تعمقاً في فهم حضارته ومعرفة مشكلاتها وأزماتها ، فكان ذلك خير طريق للتحرر من الكثير من آثارها . ولذلك وجدنا في هذه المرحلة الجديدة من حياتنا وفي هذه السنين الأخيرة أن أكثر الناس تحرراً من النفوذ الثقافي الغربي من حيث الجوهر – لا الأسلوب –أعرفهم بها وأشدهم تعمقاً في معرفتها وأكثرهم ملازمة لها ، فالثورة على الثقافة القديمة كما بدأت من المثقفين بها ، ظهرت الثورة كذلك على الثقافة الغربية وفلسفتها من المنتمين اليها والناشئين في أجوائها [١] . ولئن كان دور أولئك قد انتهى فإن دور هؤلاء قد ابتدأ .

لقد تظاهرت هذه العوامل التي ذكرناها على الوصول بالتطور إلى مرحلة جديدة ، وذلك بما أثمرته من ثمرات : منه

---

(١) من أمثلة ذلك محمد إقبال الفيلسوف المسلم وكان ذا ثقافة غربية عميقة درس الفلسفة والحقوق والآداب في أوربا وأجاد وتعمق في اللغة الانكليزية والألمانية . ومن هذا النوع الأستاذ مالك بن نبي المفكر الاسلامي الجزائري وهو مهندس كهربائي درس في فرنسا وأقام فيها ثلاثين سنة وألف الكثير من كتبه بلغتها .

فهم الحضارة الغربية فهماً عميقاً، والتمييز بين عناصرها الخاصة بشعوبها والعارضة في حياتهم والظاهرة وعناصرها العامة ذات الصفة الدائمة والإنسانية والجـــوهرية . ومن هذه الثمرات ما يتراءى للباحث المتأمل من أن الحضارة الغربية بشتى صورها قد أخفقت في تحقيق السعادة للإنسان ، وفي تهذيب النفس الإنسانية وفي الإرتقاء بغاياتها ،ولم تنجح إلا في الوسائل دون الغايات،وفي الصناعة سواء أكانت صناعة عقلية أو يدوية لا في الأخلاق ومن نتائج هذه العوامل أيضاً المسير أشواطاً كبيرة نحو فهم الإسلام فهماً عميقـــاً صحيحاً وتمييز عناصره الأصيلة ومبادئه السامية من العناصر الدخيلة عليه ، والعالقة به خلال العصور المنصرمة والعودة إلى أخـــذه من ينابيعه الصافية والناهله العذبة في كتاب الله المعجز ، وسيرة نبيه العظيم – صلوات الله عليه – وأقواله ثم سيرة أصحابه .

إن هذه العوامل كلها ومأادت إليه من نتائج تجعلنا في بدء مرحلة جديدة هي مرحلة الوعي الذاتي التي بدأت تتجلى في الأمة العربية، وفي سائر الأمم الإسلامية وإن من الواجب أن نضاعف النور في طريقنـــا ، وأن نقتلع الرواسب الضارة العالقة بنا من مرحلة الخضوع والتبعية ، وأن نعمم هذا الوعي وننهي معركة التحرر المعنوي والتبعية الحضـــارية في الداخل لنبدأ بالمعركة الخارجية لصالح الحضارة والإنسانية .

إن هذه المرحلة الجديدة يتجلى فيها الوعي الذاتي في أكثر الشعوب الإسلامية ومنهــا الشعب العربي ، وليكون الوعي كاملاً في الأمم لا بد أن تجتمع فيه ثلاثة عناصر : **وعي المبدأ** أو العقيدة أو الرسالة التي تدين بها تلك الأمة وتعمل من أجلها وتقيم الحياه على أسسها . **ووعي الكيان أو الجماعة** البشرية كجماعة متميزة بذاتها سواء أكانت هذه الجماعــة مؤلفة من شعب واحد أو من شعوب كثيرة . **ووعي الموقف** أي إدراك المرحلة التي تمر بها والموقع الزماني والمكاني الذي تكون فيه بظروفه وملابساته . ولو نظرنا بهذا المنظار الى الأمة العربية والى كثير من الشعوب الاسلامية التي بلغت المرحــلة نفسها لوجدنا النتائج التالية :

(أ) لقد انهار هيكل البنــاء الذي كنا نعيش به في عصور الانحطاط القريبة وتداعت أكثر أجزائه للهدم ولم يبق منه إلا بعض مواد البناء المتينة في أصلها ولكن دون ان يتكون منها بناء .

(ب) لم نجد في الحضارة الغربية على اختلاف مذاهبهـا الديمقراطية والاشتراكية مذهباً صالحاً لحيــاة الانسان ورقيه الحقيقي وسعادته ، وإن وجدنا في نتاجهـا العقلي في ميدان العلوم المحضة أعني الرياضيات والطبيعيات ، وفي صناعتهـا ،

وسائل صالحة . بل إن أصحابها أنفسهم اعتقد الكثير منهم بفساد اتجاهها وسوء غاياتها وإخفاقها .

(ج) وجد العرب والشعوب الاسلامية الأخرى ان فيما بين أيديهم من تراث النبوات ووحي الديانات، رصيداً ثميناً وصعيداً مشتركاً للانسانية جميعها وأن ما جاء به الإسلام أخيراً من إكمال للبناء وشمول للحياة وتحديد لاتجاهات ثابتة ، يقوم عليها نظام كامل للحياة مستمر التجدد ، مفتوح الآفاق – إن في ذلك كله مبدأ صالحاً لهم وللانسانية جميعاً ، يستطيع العرب والمسلمون ان يقيموا عليه حضارة وأن يدعوا اليها أمم الأرض وشعوبها .

إن العرب يجدون في العقائد المشتركة التي قامت عليها الديانات من الإيمان بالله الخالق، والإيمان بحسابه ، وفي المبادىء والنظم التي جاء بها الاسلام متمماً لما بين يديه من النبوات والديانات – إنهم يجدون في ذلك ما يحقق الإنسانية في نفوسهم وفي نفوس غيرهم أيضاً .

ولا بد لإنضاج هذا الوعي ، وعي الرسالة والمبدأ من شروط يجب تحقيقها .

١ – تقديم الإسلام في صورته الكاملة كبناء ونظام شامل لا في جزئيات منثورة وتفصيلات مفرقة .

لقد سادت في العصر الماضي عقلية الجزئيات والتفصيلات فحجبت عن أذهان الناس الصورة التامة الواضحة

للإسلام ، حتى إن كل واحد يعرّف لك الإسلام ويحصره في إحدى جزئياته . وإن دارس الجزئيات وحدها لا يفقه الإسلام مهما يكن فقيهاً في هذه الجزئيات . إن مزية الإسلام أن نظرته كلية شاملة ، وأنه لم يجزىء الحياة بل نظر إليها نظرة موحدة متصلة ولو أنها كانت هي نفسها أقسامـاً . ولو استعرضت كتاب الله لخرجت منه بفكرة محيطة شاملة تحيط بالكون والإنسان ونواحي حياته ونشاطه ، وتربطها جميعاً بخالقها ونهايتها [1] وإنك لتلمح من خلال سيرة الصحابة فهمهم لـكليـــات الإسلام الكبرى وغاياته [2] .

إن الأساس في رسالة الاسلام إنماهو الأساس الإيماني، الذي يتضمن نظرته إلى الوجود وعقيدته والـــتي تتلخص بارتباط الكون – والإنسان في جملته – بخالق فاطر منه البداية

---

(١) كما ترى ذلك واضحاً في كثير من الآيات الجامعة كقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط : وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ... » (الحديد) وقوله تعالى : « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله . . إلى قوله تعالى : لقوم يعلمون » . (الأعراف)

(٢) من أحسن الأمثلة على ذلك ما قاله ربعي بن عامر حين دخل على قائد الفرس يوم التقى الجيشان في عهد عمر إذ قال : (إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها) وفي هذه الكلمة أروع تلخيص لرسالة الإسلام .

وإليه النهاية . ومن خلال الكون وحوادثه وسننه وآياته وقوانينه وحركاته ، ومن خلال نفسه أيضاً – يصل الإنسان إلى الله وهو مسؤول أمامه في حياة أخرى . وليست النبوات إلا طريقاً أراده الله لتبليغ الأمانة وهداية البشر إليه . ذلك هو العنصر الاعتقادي في هذا الأساس . ولكن هذا الأساس الإيماني يتوجه إلى القلب والعاطفة ، كما يتوجه إلى العقل فيبعث فيه عواطف الخوف والرجاء والخشية والأمل والإعجاب والإكبار ، وعواطف الشعور بالمسؤولية أمام الله ، ويقظة الضمير ومحاسبة النفس ومراقبتها .

ويرتبط بهذا الأساس الإيماني رياضة روحية تتناسب مع مبادىء الإسلام وأنظمته الأخرى لتبقى النفس متيقظة ، والعواطف المتسامية نحو الله حية فعالة ، وهذه الرياضة هي نظام العبادات بأنواعها المختلفة المحيطة بالإنسان في سائر نواحي وجوده ونشاطه وميوله وغرائزه . وهذه الرياضة الروحية أو نظام العبادات حلقة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً لأنها هي التي تضع الأساس النفسي بعد الإيمان الصالح لدخول معترك الحياة ، وتعدها لتقبل نظام الأخلاق في الإسلام ، وهو الحلقة الثالثة من نظامه يرتبط بما قبله من الإيمان والعبادة وبما بعده من نظم للحياة الفردية والاجتماعية وللفعالية الانسانية ، ويجعل النفس مرتبطة بالله من جانب بغاياتها وبواعثها وتحركاتها ؛ وبنضال الحياة

الانسانية في سبيل العمل ومناصرة الحق والعدل والخير في النفس والمجتمع لتحريرهما من الباطل والظلم والشر . وبذلك يختلف هذا النظام عن المذاهب الروحية السلبية وعن المذاهب المادية النفعية في آن واحد .

ويرسم الإسلام بعد ذلك لحياة الإنسان خطوطها الكبرى ومعالمها الواضحة في الأسرة ، فيحكم بناءها ويحدد وظيفتها وواجباتها . وفي العمل المادي والكسب والاقتصاد على أسس جامعة متوازنة عادلة . ويقيم بعد ذلك دولة ليست هي الدولة الدينية التي عرفتها أوربا في القرون الوسطى ولا الدولة العلمانية أو (اللادينية) التي عرفتها عصورها الحديثة . وإنما هي دولة وظيفتها رعاية هذا النظام الكامل وحماية هذا الجهاز الإنساني الضخم ليسير سيره الطبيعي ويرتقي ويسمو في جميع الآفاق ولا تخرج عن إشرافها أي فعالية من فعاليات الانسان المادية والروحية . فكما تدخل الناحية الاقتصادية تدخل الناحية الخلقية والروحية . لا تنكره ولكن تحمي وتصون ، وتهيء الجو الذي ينطلق فيه الإنسان نحو الله ، لا يستعبده مال ولا إنسان ولا طبقة ولا شهوة ، يتساوى في هذه الدولة الراعي والرعية على أنهم عباد الله ، ولكل عمله ووظيفته . وليس الحاكم جباراً ولا مستبداً وإنما هو وكيل عن الشعب ونائب عن الناس وأجير لهم ، وليس كما كان عند الأوربيين وكيلاً عن الله أو نائباً عنه .

والحكم مبني على الشورى بين الراعي والرعية وعلى العدالة بين الناس على اختلاف عقائدهم وأديانهم وأجناسهم وعلى مسؤولية الحاكم في الدنيا أمام الناس وله أمام الله حساب آخر في حياة أخرى .

وينشأ عن هذه الأنظمة بمجموعها حضارة كاملة ينطلق فيها الإنسان بعقله وقلبه ويده ، يفكر ويشعر ويعمل متجهاً نحو الله مبتغياً رضاه ، منتظراً حسابه . وينبثق عن هذه الحضارة علم وعمل وفن تتناسب مع أهدافها التي هي **مسير الانسانية متآخية نحو الله .**

ذلك هو بناء الإسلام في أقسامه الواضحة المتماسكة في صورة موجزة . إن تفكيك أي جزء من أجزاء هذا البناء وفصله عنه ، مؤد إلى إفساد الغاية التي اقتضتها حكمة الله فيه وتشويه لجماله وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »[1] .

لقد كان من أسباب تعطيل فعالية الإسلام الكبرى تشعب

---

(1) إن هذه النظرة الشاملة الجامعة لجميع جوانب الإسلام ونواحي الحياة هي التي اقترحنا تسميتها (نظام الإسلام) وقد جعلت مادة للدراسة في كليات الأزهر وجامعة دمشق والجامعة الإسلامية بالمدينة وكلية الشريعة بمكة وجامعة أم درمان الإسلامية بناء على اقتراحي حينما اشتركت في لجان التخطيط في هذه الجامعات وأدخلت في جامعة الرياض باسم الثقافة الإسلامية وقد شرعت منذ سنين طويلة في إعداد مؤلف يعرض هذه الفكرة الشاملة عرضاً جامعاً للأجزاء رابطاً بينها موضحاً جوهرها وقد أخرجت جزءاً من هذا المشروع بعنوان: نظام الإسلام-العقيدة والعبادة (طبع دار الفكر في بيروت ١٩٦٨).

الإسلام في القرون التي أعقبت الصدر الأول إلى عقيدة تخاطب العقل عند علماء الكلام، وعاطفة تخاطب القلب وتصلح النفس عند الأخلاقيين والمتصوفة، وأعني الذين كانوا على النهج الإسلامي، وأحكام ظاهرة يدرسها الفقهاء.

لقد كان الإسلام وحدة لا تتجزأ فكانت صلاة المسلمين الأولين عملاً ظاهراً يتعلمون حكمه، ومظهراً لصلة القلب بالله وإيمان العقل به. وكان كل ذلك يعمل معاً دون انفصال وتجزئة.

٢- ومن الشروط التي يجب تحقيقها لإنضاج الوعي الإسلامي: وضع الأمور في نصابها وإعادة النسب إلى أصلها في ترتيب أجزاء هذا البناء الذي بناه الإسلام وقد أشرنا إلى هذه الفكرة في الفصل السابق.

إن الإسلام جعل لكل ناحية من نواحي الحياة ومطلب من مطالبها نسبة محدودة لا يتعداها، وقرر ترتيبها بحسب أهميتها فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة والكسب حصة ونسبة. وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهو والعمل. وضعاً ومقداراً. فاذ بنا نرى أن العصور المنصرمة غيرت هذه النسب، وإذا بالجهاد مثلاً يحذف من كثير من كتب الفقه المختصرة أو تخصص له صفحات قليلة، أو لا يخص في المواعظ بحصة كبيرة وهو من أركان الإسلام الكبرى. وكذلك لا ينبه إلى أهمية الزكاة بمقدار ما ينبه إلى بعض

السنن والنوافل ، مع أن مانعي الزكاة حوربوا محاربة المرتدين.

كثيراً ما يقرن القرآن أموراً بأمور وينبه إلى أهميتها، كقوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » أو قوله في باب المفاضلة بين قيم الحياة وترتيبها : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم، وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ».

وتشير كثير من الأحاديث إلى أهمية الأعمال بعضها بالنسبة إلى بعض وتقويم بعضها ببعض ، كالحديث المفاضل بين الجهاد والعبادة[1] والفقه والعبادة[2] ، وكذلك الأعمال بالنسبة إلى قبحها إذا كانت محظورة كالربا والزنى[3] .

ومن هنا نعرف خطأ الذين يجعلون همهم ودأبهم تصحيح بعض الأمور التي لا تعد شيئاً في جانب فساد العقيدة ، ويتعصبون لرأيهم فيها ويتشددون في أمرها تشدداً يشغل أذهان الناس بها ويصرفهم عن أسس العقيدة المهددة .

---

(١) كالحديث الصحيح الناص على ان أجر المجاهد – حين سألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم – كأجر المصلي الصائم القائم من ساعة خروج المجاهد من بيته إلى ساعة رجوعه .

(٢) كقوله عليه الصلاة والسلام : (فقه ساعة خير من عبادة ستين سنة).

(٣) كقوله عن الربا ، (إنه يعدل ستاً وثلاثين زنية أدناها كالذي يزني بأمه) لبيان عظم جرم الظلم المالي المتجلي في الربا بالنسبة إلى الزنى .

٣ – ومن شرائط الوعي الإسلامي :

العودة في فهم الإسلام الى ينابيعه الأصلية من الكتاب والسنة وفهم الصحابة ، وإزالة الحجب التي فصلتنا عنها ، واعتبار الآراء المستنبطة خلال العصور فهوماً لعلماء المسلمين يُستفاد منها .

وعي المرحلة أو الموقف :

يتطلب هذا الوعي منا ان ندرك الموقع الذي نحن فيه والظروف التي تلابسنا والزمن الذي نعيش فيه . فنحكم الخطة ونحكم الفهم على هذا الأساس :

(١) يتطلب هذا الوعي منا أن ندرك الجو الفكري الذي نعيش فيه حين نعرض العقيدة الاسلامية : انها ثابتة لا تتغير ولكن طريقة الخطاب وطريقة العرض تتغير . ولو أننا عدنا الى القرآن نفسه ، لوجدنا عناصر هذه الطريقة جلية واضحة.

لم يعد من الجائز ان نعرض العقيدة وندرسها كما يعرضها التفتنازي في مقاصده،أو النسفي في عقائده فنبحث مشكلات تاريخية لا وجود لها اليوم ونناقش فرقاً انقرضت ، ثم نهمل مشكلات قائمة وفرقاً ومذاهب موجودة . إن مسائل الذات والصفات والجوهر والعرض والزمان والمكان مسائل تاريخية أو فلسفية على الأقل . ولم نعد نسمع بين الناس بالمعطلة والمرجئة ، ولكننا اليوم أمام مشكلات جديدة ومذاهب فكرية وفلسفية

جديدة (١) . والمهم ان نبعث الإيمان كما جاء به الإسلام في العقول والقلوب بحسب مستواها وفي الجو الذي تعيش فيه . والقرآن خير مصدر يمدنا في هذا الميدان .

٢ - يجب ان نعلم أننا نعلـّم الإسلام في جو ملوث موبوء . فلنحاول شعباً وحكومة ، تطهير هذا الجو حتى يجد الإيمان الإسلامي والعواطف المنبعثة عن الإيمان بالله والشعور بالصلة به وبالمسؤولية أمامه طريقاً إلى القلوب والنفوس . فإن العوامل الهدامة والعوامل التي تحجب عنا القيم الروحية والمثل السامية والعواطف الصالحة التي جاء بها الإسلام للرقي بالانسان، منها ما هو عقلي وفكري ، ومنها ما هو نفسي عاطفي .

٣ - يجب ان ندرك الظروف التي نبحث فيها الحكم الفقهي في التشريع. وكثيراً ما زلت في هذا الموطن أقدام الى جانب اليمين أو اليسار إفراطاً وتفريطاً .فنحن بين اتجاهين منحرفين يجب تجنبها لنكون على الجادة المستقيمة . أحدهما : المذهبية الضيقة والجمود المنافي لفهم روح الشريعة ومبادئها العامة : وثانيهما : الوقوع تحت تأثير المفاهيم الأجنبية ، ولأضرب على ذلك بعض الأمثلة :

تواجهنا وتدخل حياتنا الاجتماعية طرائق وتنظيمات وعادات

(١) إن أمثال هذه الكتب والمسائل يمكن أن تدرس على انها قضايا تاريخية في بعض أقسام التخصص . وللتدرب على فهم أمثال هذه الكتب للرجوع إليها ، وكسب الملكة التي تعين على فهمها .

اجتماعية جديدة كثيرة، منها لا يتفق مع معتقداتنا الصحيحة، ومبادئنا الخلقية القويمة، فمن ذلك الطريقة التي سلكها أهل أوربا وأمريكا في تخليد أبطالهم في تماثيل تنصب لهم [١]، ولو نظرنا في هذا الأمر نظرة المتحرر من ذلة الخضوع لكل ما تمليه حضارة الغرب، وتأملنا في فلسفة هذه الطريقة في التعبير عن تخليد المآثر والمكارم، لوجدنا أن العرب بوجه خاص لم يخلدوا من عظماء رجالهم إلا مكارمهم وأعمالهم المجيدة الطيبة كالوفاء والكرم والشجاعة، وان طريقتهم في تخليدهم كانت في ذكر قصص بطولتهم، وقد تناقلها الناس جيلاً بعد جيل، أو في نظم الشعر في مدحهم والاشادة بهم. وبهذه الطريقة خلد حاتم بكرمه، وعنترة بشجاعته قبل الإسلام. ولما جاء الإسلام أكد هذا المعنى، فجعل أشرف خلق الله وخاتم رسله بشراً من الناس: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي»، وجعل قيمة الناس بأعمالهم لا بأجسامهم، وجعل الرسول ﷺ قدوة يقتدي به البشر، ونهى عن تقديس البشر، وتعظيمهم تعظيماً يشبه العبادة، ويتضمن احتقار النفوس البشرية الأخرى.

ولذلك نادى الخليفة الأول حين انتقل رسول الله إلى جوار ربه: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد إلا

---

(١) أضف ما ذكرناه هنا في موضوع التماثيل إلى مـا كتبناه في الفصل السابق في الموضوع نفسه.

رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، لقد خلَّد الإسلام الناس بأعمالهم الصالحة النافعة وخلد في قلوب المسلمين، خواصهم وعوامهم، رجالات الإسلام فعرف صغيرهم وكبيرهم ، عُمر بالعدل ، وأبا بكر بالحزم والحكمة ، وعلياً بالزهد والشجاعة ، ولم يحتج أحد منهم إلى تمثال مادي من الحجر ينصب ليتذكره الناس ، فقد خلدته أعماله وأخلاقه في قلوبهم . إن في طريقة التخليد بإقامة التماثيل المادية رجوعاً إلى الوراء وانحطاطاً عن المرتبة السامية. سلكها الرومان واليونان والأوربيون من بعدهم لأنهم جميعاً وثنيون في طباعهم منحطون عن العرب والمسلمين في مستوى خلقهم وتقديرهم للقيم الخلقية. بل إنهم لعجزهم عن تصور تحقيق البشر للمثل الأعلى والبطولة ألحقوا أبطالهم بالآلهة وجعلوا الآلهة أبطالاً . والنتيجة التي نخرج إليها أننا لا ينبغي لنا أن نخضع للمفهوم الأجنبي في هذا الموضوع وهو أدنى من مفهومنا ، وألا نغير الحكم الإسلامي في حرمة إقامة التماثيل لضررها النفسي والخلقي .

ومن أمثلة الخضوع للمفاهيم الأجنبية ما ذكرناه سابقاً في موضوع « اليانصيب » فإن المجتمع الأوربي كما قلنا حين نضب معين الخير في نفوس أفراده وفترت البواعث النفسية إلى فعل الخير لذاته أو ماتت ، لم يبق إلا دوافع الاغراء بالربح المادي طريقاً لأخذ المال في سبيل مصلحة عامة أو في سبيل الخير فإذا أقررنا اليانصيب وحللناه فمعنى ذلك : أننا أقررنا بأن قلوبنا

أقفرت من الخير ولم يعد بينها وبين الله صلة تدفعها إلى فعل الخير إرضاء لله ، وهي طريقة تتناسب مع مذهب المادية والجحود ، لا مع مذهب الإيمان بالله .

وقد أتينا في الفصل السابق على أمثلة للجمود والتضييق المذهبي منها مسألة الضرائب ومسألة تشريع العمل .

إننا في حاجة إلى وعي فقهي إسلامي نفهم فيه فقه الإسلام وحكمه ونعود إلى مبادئه وقواعده في الكتاب والسنة ، ونسترشد بفهم فقهاء الصحابة ، وندرك مواطن الأمور ومجالها وظروف تطبيق كل حكم من الأحكام بحسب غاية الشارع منه ، ونفرق بين مبادىء الإسلام وأحكامه وإتجاهاته التشريعية الثابتة ، وتطبيقاته الزمنية في عصور الفقهاء وفهومهم ، لنبعث الإسلام وفقهه في الحياة من جديد .

يجب أن ندرك تمام الإدراك أن المرحلة التي تمر بها البشرية في العصر الحاضر - ولا سيما في أوربا وأمريكا - هي مرحلة وثنية جديدة وإن المذاهب والفلسفات والنظم التي تغزونا وتغزو العالم أجمع عن طريق الفكر والعلم أو عن طريق السياسة أو الإقتصاد هي مذاهب تنهل من هذه الوثنية ، وتستمد من المادية ، وأنها قد قطعت صلتها أو كادت من الأديان وتراث النبوات ، وليست الصهيونية والاستعمار إلا مظهرين من مظاهر هذه الحضارة الوثنية الجديدة . وما دامت الحال كذلك يجب أن توجه الجهود لمحاربة هذا الخطر الأكبر الذي

لمدد البشرية جميعاً ، وتقوية جبهة المبادىء الروحية والقيم الخلقية والإيمان بالله ، وعدم الإلتفات الكبير إلى المسائل التي ليست في مرتبة هذه الأسس الاعتقادية الكبرى .

وعي الذات أو الجماعة البشرية التي ننتمي إليها :

إن الرسالة والعقيدة لا تعيش بنفسها مستقلة عمن يحملونها، بل لا بد لها من شعب أو عدد من الشعوب يضطلعون بحملها، ولذلك كان الشرط الذي لابد منه لنشر رسالة من الرسالات، أن يشعر شعب من الشعوب بكيانه وذاته مرتبطاً بتلك الرسالة .

إن في العالم اليوم عدداً من الشعوب الإسلامية ، أي التي بدين جمهورها كله أو أكثره بالإسلام ،وبعض الأقليات المتفرقة في بعض الشعوب الأخرى ، إن من جملة مظاهر الإنحطاط الذي آلت إليه حالة المسلمين في العالم فقدان الشعوب الإسلامية لوعيها الذاتي ، أو ضعفه على الأقل ، وقد بدأت هذه الشعوب اليوم تشعر بوجودها وكيانها وموقعها في العالم وبين شعوبه.

الإسلام والقوميات

وليس ثمة من تناقض ولا تعارض بين شعور هذه الشعوب بقومياتها على أنها كيان موجود وحقيقة قائمة وشعورها بانتمائها الى الإسلام ووعيها الإسلامي . فالإسلام لم يعمد في

الأصل إلى محو القوميات من الوجود ، وقد قال الله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » .

ولكن الذي دعا إلى محوه وحاربه هو **العصبية القومية** ومزية الإسلام وقيمته العظيمة التي لا تبارى هي في أنه جعل للشعوب البشرية هدفاً مشتركاً تسير نحوه وصعيداً تلتقي عليه فتشترك في مفاهيمها وعقائدها وفي مشاعرها وآمالها ، وفي الكثير من عاداتها ، وبذلك تكونت **حضارة إسلامية تتصف بالانسانية** ، وثقافة إسلامية تتجة نحو الانسانية وتتعادل جميع الشعوب في شركة مفتوحة الأبواب لكل من يريد الدخول فيها والمساهمة فيها ، وبذلك لم يجعل القوميـة غاية في ذاتها يوقف عندها ، بل جعل القومية ، أي انتماء الناس إلى أجناس وبلدان ، أداة لخدمـــة الانسانية التي رسم مثلها وأهدافها واتجاهاتها في رسالته السماوية في مصدرها ، الإلهية في منبعها وأصلها .

إن في العالم الإسلامي عرباً وهنوداً واندونيسيين وفرساً وافغانيين وأتراكاً وأحباشاً وإفريقيين وشعوباً إفريقية أخرى، وغيرهم ممن تتألف منهم الشعوب الإسلامية، ومنهم اليوم دول مستقلة كبيرة كالدول العربية وباكستان واندونيسيا وإيران وتركيا والملايو والأفغان وغيرها. وقد ترك الإسلام منذ القديم لكل شعب لغته والكثير من عاداته الخاصة وفنونه . ولكنه وحد العقيدة ، أي نظرتهم إلى الله والوجود والحياة ، ووحد

طريقة عبادة الله ، والتشريع ، أي : تنظيم العلاقات بين الناس في تعاملهم ، وطريقة السلوك أو المفاهيم الخلقية، وبعض العادات المتعلقة بتحريم بعض المآكل والمشارب وغيرها .

إن شعور هذه الشعوب الإسلامية اليوم بالانتماء إلى أسس واحدة للحضارة والثقافة واهداف وغايات مشتركة في الحياة ، وشعورها أنها تكون في العالم كياناً بشرياً ، يتميز بمثله وقيمه وحضارته ، ومنطقة ثقافية ، وحضارة واحدة أمام عوالم أخرى هي العالم الديمقراطي الغربي والعالم الشيوعي والعالم الوثني الآسيوي الأفريقي . إن هذا الشعور ضروري جداً ، بل عنصر أساسي في تقدم الإنسانية كلها ، إن وجود هذه الكتلة البشرية المؤلفة من شعوب كثيرة المتميزة بنوع من الثقافة أو العقائد والمفاهيم والعادات والعواطف المشتركة أمر واقع لا يمكن دفعه ولا إنكاره، ولكن المهم هو قوة شعور المسلمين به والارتقاء بهذا الشعور العفوي الموروث إلى شعور واع تغذيه معرفة واسعة منتشرة بين الجماهير لمشكلات العالم الإسلامي في ميادين الفكر والخلق والاقتصاد والسياسة، فلم يعد من المستساغ ولا من المقبول أن لا يعرف المسلم العادي فضلاً عن الداعية المسلم شيئاً عن البلاد الإسلامية وعواصمها وجملة أحوالها ، وأهم مشكلاتها ، ولذلك كان من الواجب أن يدرس العالم الإسلامي في جميع مراحل التعليم .

إن ثمة فرقاً كبيراً جداً وبوناً شاسعاً بين إحداث وعي

شعبي في العالم الإسلامي ، يقوم على شعوره بذاته وكيانه المتميز بثقافته وحضارته السامية الأهداف عن الحضارات والعوالم الأخرى ، وشكل آخر من الارتباط السياسي بين حكومات تحكم في البلاد الإسلامية وتتسم بسمة التحالف والتقارب والتواد مع بعض الدول والكتل الأجنبية شرقية كانت أم غربية ، ليكون من وراء هذا الارتباط تكتل مصطنع لا جذور له يربط دول العالم الإسلامي بإحدى الكتل العالمية فيفقده بذلك أهم خصائصه وميزاته ، ويفقده الأمل في أن يكون معقد الرجاء ومطمح الأنظار لحل أزمة الحضارة التي فقدت الروح والقيم الخلقية .

هذا ، وإن شعور كل شعب من الشعوب الإسلامية بكيانه القومي وتحفزه لوحدته إذا كان مجزأ، وتحرره إذا كان مستعمراً، لا ينافي الوعي الإسلامي العام، إذا لم يبلغ هذا الشعور القومي حد العصبية ولم يطغ على العقيدة الإسلامية وعلى الشعور الأبعد والأسمى للغايات الانسانية التي رسمها الإسلام .

العرب ورسالة الإسلام العامة

إن شعورنا نحن العرب بكوننا عرباً وسعينا إلى توحيد البلاد العربية وتحريرها جميعاً من الاستعمار ، لا أقول : انه لا ينافي الإسلام وحسب ، بل إن هذا الشعور بعروبتنا ضروري بوجه خاص لحسن قيامنا بأداء رسالة الإسلام ، ذلك أن العرب

مكلفون قبل غيرهم بتبليغ رسالة الاسلام ، فقد نزل القرآن بلغتهم ، وبعث رسول الانسانية جميعاً من بينهم ، وهم الذين فهموا الإسلام حق الفهم إذ تلقوه عن النبي الكريم صلوات الله عليه ، وتنزلت فيهم آيات الكتاب المجيد، ولذلك كان العرب أعلم بمقاصد الرسالة وأفقه لنظام الإسلام وأعرف بأساليب القرآن .

ولهذا كان للعرب في رسالة الإسلام ودعوته وظيفة هامة دائمة ، وهي حمل رسالته وتبليغ أمانته ونشر دعوته ، وقد حملهم الله المسؤولية كما ينص على ذلك كتابه الكريم ، وتدل عليه آيتان في سورة الزخرف في قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وقوله : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » .

ومعنى الآية الأولى : أن الله جعله عربي اللغة ليستطيعوا أن يعقلوه ويفهموه، وما ذلك إلا ليبلغوه إلى الناس كافة وجاءت الآية التالية تنص على أنهم سوف يسألون بعد أن بينت أن في هذا القرآن ذكراً ورفعة للرسول صلوات الله عليه ولقومه ، وقوم الرسول هنا هم العرب كما فسره ابن كثير . فهذه المسؤولية التي حملها الله العرب في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة مستمرة باقية إلى يوم الدين ، ولذلك كان وعيهم لعروبتهم مؤذناً لهم بواجبهم نحو العالم جميعاً ومشعراً لهم بموقعهم بين الشعوب الإسلامية وبتبعتهم نحوهم ونحو

الانسانية جميعاً . وأما عصبية الجنس والشعور بالاستعلاء فيفقدهم قيمتهم العالمية ، وتسقط عنهم صفة الهداية والقيادة وتعيدهم إلى مستوى تلك الأمم التي تتنافس على المال والنفوذ والسلطان تدفعها لأثرة والغرور وحب الذات .

لقد انتهى العرب في بعض أقطارهم من معركة التحرر من الاستعمار والتبعية السياسية ، ونجحوا في معـارك التحرر السياسي وتحطيم الأصنام التي كان يخضع لها القادة والساسة من هذه الدول الكبيرة العاتية التي تسيطر على أكثر بقاع الأرض، فتهيأ لنا بنا بذلك الاطار السياسي الصالح للبناء ، فيجب أن نتمم معركة التحرر من رواسب عصور الانحاط ، ومن بقايا الآثار الكثيرة العميقة التي خلفتها مرحلة التقليد والتبعية للغرب في تفكيرنا ومفاهيمنا ومقاييسنا وعاداتنا ، لنشرع في البناء على أسس سليمة صحيحة . إن التحرر ينبغي أن يكون مزدوجاً كما كان الاستعمار مزدوجاً يتناول الأرض كما تناول النفوس والعقول ، فإنه لا يزال فينا متخلفون يعيشون في جو تقديس الأجنبي وحضارته والخضوع لاتجاهـاته ومقاييسه وأحكامه ولا سيما من الطبقة المثقفة .

إن الأمة جميعاً يجب أن تساهم في مرحلة البناء الجديدة بوعي ذاتي يزداد قوة وعمقاً للمبدأ والرسالة وللكيان والجماعة وللزمن والمرحلة لإحياء الإنسانية والإرتقاء بالإنسان نحو الله، وربط عقله وقلبه وعمله به ، وليس كياننا الفردي والقومي

ولا جهادنا السياسي والعلم ، ولا رجال العلم وقادة السياسة إلا وسائل لتحقيق هذه الغاية ، وهم على خيرٍ ما داموا سائرين نحو هذه الغاية النبيلة التي تكفل لهم الخلود ورضاء الله .

في ضوء هذا التحرر من التبعية الفكرية للغرب أي في ضوء أوضاعنا وظروف حياتنا وفي ضوء مفاهيم الإسلام الذاتية سنعالج بعض القضايا والمشكلات الكبرى كمشكلة الثقافة في البلاد الإسلامية ومشكلة وقضية تاريخنا كيف نكتبه ومشكلة المرأة وغيرها من المشكلات والقضايا .



المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي[1] واقعها وعلاجها

النظام الثقافي الحالي في البلاد الاسلامية :

أ ـ يسيطر على النظام الثقافي في البلاد الإسلامية بوجه عام تفكير غير إسلامي في أسسه ومفاهيمه سواء كان ذلك عن طريق التعليم في المدارس أم عن طريق وسائل النشر الأخرى كالصحف والمجلات والإذاعات والكتب المترجمة والمؤلفة ففي المواد الدراسية ولا سيما التاريخ والاجتماع والتربية الوطنية والمعلومات المدنية ، وفي المواد الفلسفية تتجلى اتجاهات فكرية ومفاهيم مستقاة من عقائد ومذاهب فكرية مخالفة للإسلام ، ولو أن المؤلفين في هذه المواد يحاولون تجنب التعارض الظاهر للأفكار الإسلامية ، وكذلك العلوم الطبيعية فانها تمزج بنظرات عقائدية خارجة في الأصل عن نطاق العلم المحض .

---

(١) القي هذا البحث في المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في مكة المكرمة بعد موسم الحج في عام ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .

إن هذه المواد الدراسية أُخذت واستقيت من مصادر أجنبية عن طريق النقـل والترجمة والاقتباس وهي لدى أصحابها وفي حضارتهم قد أسست على مفاهيم فلسفية وأسس فكرية معينة هي نتيجة تطورهم الفكري وظروفهم الخاصة منها الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والعقل ذلك الصراع الذي كان نتيجـة لتشوه الدين وانحرافه إلى وثنية جامدة وتقاليد عجيبة ومناصرة رجاله لأهل الظلم والاستبداد قبل النهضة وفي بدايتها ومعاكسته للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

لقد تجلت في هذا التفكير العام المسيطر على الثقافة نزعات فكرية تخالف التفكير الإسلامي والعقيدة الإسلامية وأهمها :

(١) النزعة الالحادية بشتى صورها ومذاهبها سواء أكانت الطبيعة فيها هي التي تحتل المكان الأول (المذهب الطبيعي منذ القرن الثامن عشر) أم المادة (المادية الجدليـة أو الماركسية) أم العقل (المذاهب العقلية) أم الغرائز (الوجودية) وغير ذلك .

(٢) النزعة القومية المغالية التي تتخذ من القومية عقيدة وقيمة عليا وهدفاً أعلى للحياة وتحصر التفكير والنشاط في الإطار القومي وتتجلى هذه النزعة واضحة في تدريس المجتمع العربي في كثير من البلاد العربية وفي مادة التربية الوطنية وفي الجو المدرسي العام .

إن الدفاع عن الأرض والوطن وعن الأهل والعشيرة وعن

الشعب والأمة التي ينتسب اليها المسلم ضد أعـداء الإسلام من المستعمرين وأصحاب المطامع في بلاد الإسلام وشعوبه دفاع مشروع بل واجب وأن تقوية هذا الشعور ضد الاستعمار دفاعاً عن الحوزة وحفظاً لسلامة الأوطان هو جزء من التربيـة الإسلامية . ولكن الموضوع هنا موضوع آخر فقد أخذت النزعة القومية في الشعوب الإسلامية تحل محل الدين تزاحمه وتدافعه ويحاول أصحابها أن يجعلوا منها الرابطـة الأساسية ومن رابطة الدين وأخوته رابطـــة ثانوية بل أمراً شخصياً لايصلح أن يكون أساساً لبناء المجتمع وفي هذه الحال تكون النزعة القومية نزعة وثنية جاهلية تفكك عرى الرابطـة الإسلامية وتضعفها وتحل عقيدتها محل العقيدة الإسلامية . على أن هذه النزعة أصبحت من مخلفات القرن الثامن عشر غير صالحة للحياة وقد حلت رابطة وحـدة الفكر والعقيدة في العصر الحاضر محل المكان الأول كالماركسية والديمقراطية ولم تعد الرابطة القومية هي العليا والأساسية بل إن الرابطة القومية نفسها أصبحت قائمة على أساس الاشتراك في الفكـرة والعقيدة .

إن صياغة العلوم المتعلقة بالطبيعة ومفاهيم التاريخ والمجتمع ومقاييس الأخلاق قد استمدت كلها من هذه الفلسفات المادية أو المثالية المختلفة المعارضة لأسس الإسلام ومفاهيمه وعقائده، وعلى هذا الأساس وضعت مناهج التدريس وألفت الكتب في البلاد الإسلامية على اختلاف درجات التعليم .

(ب) **أما تعليم الدين في المدارس العامة** الرسمية أو الخاصة التي تحتذيها في البلاد الإسلامية فيؤلف رقعة صغيرة غير منسجمة في مجموع النظام التعليمي الذي وصفناه .

١ – فهو يؤلف من الوجهـــة الـــكمية أولاً نصيباً ضئيلاً بالنسبة إلى مواد الدراسة يتراوح في المدارس الابتدائية ما

بين $\frac{١}{٣٠}$ و $\frac{٤}{٣٠}$

وفي المدارس الاعدادية والثانوية $\frac{١ - ٤}{٣٤}$

وفي دور المعلمين في البلاد التي يدرس فيها الدين بهذه النسبة أو أقل .

أما في الكليات الجامعية فـــلا تدرس الثقافة الإسلامية مطلقاً إلا في قسم اللغة العربية في كليات الآداب في بعض الجامعات حيث يدرس القرآن والحديث من الوجهة الأدبية فحسب .

٢ – أما من الوجهة الكيفية فالنقص أشد والخطر أقوى وذلك أن طريقة تدريس الدين ومناهجه وكتبه وأساليب كتابته وتعليمه كانت متأخرة جداً ولا تزال في كثير من البلدان الإسلامية بالنسبة إلى مواد الثقافة الأخرى ففي حين أن تعليم سائر المواد يسلك فيه أساليب حديثة مرغبة من حيث مراعاة مستوى الطلاب العقلي ومن ناحية حسن التعبير وجمال التألف

وغير ذلك مما تراعى فيه أحدث الطرق والأساليب نجد أن التعليم الديني لا يراعى فيه – في كثير من البلاد الاسلامية – سن الطالب من حيث استساغته للموضوع ولا تراعى فيه عقلية وأساليب التفكير التي اعتادها في ثقافته ولا ينظر إلى المشكلات القائمة في نفسه وفي المجتمع الذي يعيش فيه لمحاولة حلها عن طريق الثقافة الإسلامية . فلا تزال تدرس في بعض البلاد الاسلامية المتون القديمة ، التي لم توضع للصغار ولا للأحداث ، والتي كتبت بأسلوب موجز معقد أشد التعقيد ، وأصبحت بعيدة في طريقتها عن الحياة ، بعيدة عن أن تحل المشكلات التي حدثت في عصرنا هذا، سواء أكانت مشكلات فكرية أم اجتماعية . وقد يضاف إلى هذا النقص أن يكون المدرس كذلك بعيداً عن روح العصر ، خالي الذهن من مشكلاته ، غير مطلع على جوانب الثقافة العامة المعاصرة التي يطلع عليها الطلاب في دراستهم . إن هذا التقابل بين هذين النوعين من المواد الدراسية مادة الدين والمواد الأخرى ، وهذه الحال التي وصفناها تسبب نفور الطلاب من الدين وتكون في نفوسهم نظرة استخفاف وازدراء لهذه المادة ولمدرسيها ، يقابلها نظرة قبول واحترام للمواد الأخرى . إن مثل هذه العقدة النفسية قد حصلت فعلاً لدى كثير من الطلاب في بعض البلاد الإسلامية التي بقيت الحال فيها على ما وصفناه من التباين والتضاد بين مادة الدين والمواد الثقافية الأخرى . وقد ولدت هذه الحال أزمة في نفوس الجيل

وصراعاً بين الدين من جهة والعلم والحياة من جهة أخرى وكان لذلك ردود فعل شديدة ونتائج سيئة في إضعاف روح الدين وفسح المجال للعقائد والأفكار المعارضة للإسلام لتتسرب إلى عقول الناشئة التي تكون الطبقة المثقفة ثم الطبقة الموجهة والحاكمة .

ج — الازدواج في التعليم :

حدث في العالم الإسلامي في هذا العصر ظاهرة جديدة لا عهد له بها في الماضي وهو ازدواج التعليم وانقسامه إلى قسمين مختلفين اختلافاً كبيراً : التعليم المدني والتعليم الديني ولكل منهما مدارسه ومراكزه واتجاهه وعقليته وأسلوبه وطريقته .

لقد كان في البلاد الإسلامية تعليم موحد ولكنه يختلف في نواحي تخصصه فابن سينا الفيلسوف الطبيب والغزالي الصوفي المتكلم الفقيه ، والباقلاني المتكلم ومن قبلهم الجاحظ الأديب وأبو حنيفة الفقيه وأبو الحسن الأشعري المتكلم يشتركون جميعاً في ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية ويشاركون في علومها المتنوعة وان كان كل واحد منهم قد تخصص في ناحية أو برز في علم .

ولكن حال العالم الإسلامي اختلف بعد اتصاله بالحضارة الغربية ومحاولته تقليدها والاقتباس منها وقيامه بنهضة علمية على غرارها فكان للثقافة في البلاد الإسلامية مصدران مختلفان ونوعان متباينان .

١ ـ أحدهما المصدر القديم والثقافة الموروثة وتنتشر هذه الثقافة وتدرس علومها وكتبها في حلقات علمية خاصة وفي مدارس قديمة يقيم فيها العلماء وطلاب العلم وفي معاهد عالية مشهورة كالأزهر والزيتونة والقرويين .

وقد استمرت هذه المراكز في عملها العلمي ولكن في معزل عن التطور العلمي وعن النهضة الحديثة وبدلاً من أن تصلح وتجدد لتكون منطلقاً للنهضة العلمية الحديثة انشئت مراكز التعليم الحديث خارج نطاقها وفي معزل عنها وعن تأثيرها فكانت المدارس الحديثة والجامعات .

وأخذت هذه المدارس القديمة في الضعف بسبب بقائها جامدة غير متطورة معزولة عن الحياة فقل الإقبال عليها وضاقت سبل العيش بالمتخرجين منها بقدر ما كثر الإقبال على المدارس والجامعات الحديثة حتى أصبح المتخرجون منها يحتلون مراكز العمل والتوجيه في الحياة العلمية فمنهم الموظفون والحكام ومنهم الأطباء والمهندسون وسائر المختصين من أرباب المهن التي تحتاج إلى تثقيف وتعليم فانعزل الأولون عن الحياة وانكمشوا وشعروا بالغضاضة والنقص وضعف تأثيرهم في مجرى الحياة وأغلقت في وجوههم أبواب العمل ومراكز التوجيه وسبل العيش وفتحت للآخرين الأبواب وكثرت موارد الرزق وأسندت اليهم الوظائف والأعمال التوجيهية .

لقد كانت هذه الحال ضربة قاصمة للثقافة الإسلامية وللدين

نفسه أبعدت الدين عن الحياة والحياة عن الدين ولم تغن مطلقاً جميع محاولات الاصلاح التي قام بها المصلحون لتلك المدارس والمعاهد الدينية لأنها لم تحل أصل المشكلة ولم تجتث أسباب الأزمة فإصلاحات الأزهر منذ عهد محمد عبده لم تكن إلا محاولة للحاق الأزهر بركب الحضارة وتزييناً لظاهره وتقريباً له من المدارس الرسمية والجامعات التي بقيت هي الأسوة في الاقتداء فكانت غاية كل مصلح أن تكون المعاهد الدينية الثانوية والعالية في مستوى المعاهد والمدارس المدنية. وهكذا بقي الازدواج الذي هو أصل البلاء وبقي ما ينتج عنه من وجود عقليتين مختلفتين وتكوين فئتين من المثقفين بثقافتين مختلفتين إحداهما دينية ولكنها قديمة في تفكيرها وأسلوبها عقيمة في طريقتها منعزلة عن الحياة ضعيفة التأثير فيها والأخرى مدنيه أو علمانية أو لا دينية ولكنها غنية في تفكيرها جديدة في أسلوبها متصلة بالحياة ومشكلاتها ممسكة بزمام التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي.

إن هذا الإزدواج وجد منذ أوائل هذا العصر وبقي حتى الآن وتجلى في مثل الأزهر والجامعات في مصر وفي الزيتونة والمعاهد والجامعة في تونس وفي القرويين والمدارس والجامعات في المغرب وفي الكليات والمعاهد الدينية وما يماثلها في المملكة العربية السعودية إلى جانب المدارس الرسمية وجامعة الرياض. إن هذا الازدواج هو مصدر البلاء والآفة الكبرى والسبب

المباشر لإضعاف الدين والتقليل من شأنـــه وتشويه الصفة الأساسية التي تتصف بها الحضارة الإسلامية وهي صفة الوحدة والتوحيد ونفي الازدواج والاثنينية التي هي مصدر البلاء وسبب الأمراض في الحضارة المسيحية الأوربية .

★

إن ما ذكرناه من مظاهر الحياة الثقافية وأوضاع التعليم الديني والثقافة الإسلامية وما وصفناه من النقائص والأعراض المرضية في النظام الثقافي في البلاد الإسلامية يختلف من بلد إلى بلد فإن بعض البلاد حاولت الإصلاح في برامج الدين أو في غير ذلك من النواحي وسعت إلى تدارك النقص وإزالة الأخطاء ولكننا نعتقد أن هذه القضية الكبرى يجب أن تعالـج معالجة أساسية جذرية ولا بد من وضع تخطيط أساسي يكون أساساً لبناء نظام ثقافي قوي صالح خال من النقائص التي ذكرناها .

اتجاهات ومحاولات جديدة

لقد بدت في أكثر البلاد الإسلامية بوادر إصلاح جديدة بل أساسية أحياناً تداركت بعض النقائص التي ذكرناها آنفاً وسار الإصلاح من منطلقين وفي اتجاهين أحدهما من معاهد التعليم الديني لتغذيتها بالثقافة العامة الحديثة والآخر من التعليم

العام ولا سيما الحكومي بتقوية الثقافة الإسلامية ويبدو ذلك في الظواهر التالية :

١ ـ تطوير التعليم في الأزهر وذلك بتقسيمه إلى درجات موازية لدرجات التعليم العام ومعادلة لها وتقوية مواد الثقافة العامة الحديثة فيها وتأسيس التعليم العالي في الأزهر على أسس جامعية وجعله متنوع الاختصاصات بحيث يشمل الطب والهندسة وغيرها بالاضافة إلى كلية الشريعة وأصول الدين واللغة العربية وإدخال تعديلات أساسية في المناهج . هذا بصرف النظر عن الانتقادات التي يمكن أن توجه للنظام الجديد من جهة التطبيق والتوجيه .

٢ ـ إحداث جامعات ومعاهد جامعية عليا على أسس جديدة أو مشتملة على شيء من التجديد من ذلك تأسيس كلية الشريعة في جامعة دمشق (١٩٥٤) والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكلية الشريعة في مكة وأخيراً الجامعة الإسلامية بأم درمان في السودان .

وقد أتيح لي شرف الاشتراك في هذا التخطيط الجديد لكلية الشريعة بجامعة دمشق ثم بجامعة الأزهر (١٩٦٠) والجامعة الاسلامية بالمدينة سنة (١٩٦٢) وما بعدها وكلية الشريعة في مكة المكرمة (١٩٦٥) والجامعة الاسلامية بأم درمان (١٩٦٦) وقبل كثير من الاقتراحات والمشروعات التي

قدمتها لهذه الجامعات فكان ذلك طريقاً لالتقائها واشتراكها في كثير من الخطط .

٣ – إحداث ثانويات شرعية أو دينية تضاهي وتعادل الثانويات كما حدث في سورية .

٤ – زيادة العناية بتدريس الدين في المدارس الحكومية كماً وكيفاً في كثير من البلاد كسورية والسودان وغيرها .

خطة لنظام ثقافي إسلامي :

يجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافي إسلامي يبنى على الأسس التالية :

١ – وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر وقد بينا آنفاً ما نقصده بالازدواج .

٢ – صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية أي أن يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الإسلامية .

٣ – إحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي – العقلي والنفسي – وعياً لمبادىء الإسلام وتعاليمه وقضايا الاسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار .

٤ – الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي .

٥ – وصل مابين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الإسلام ونظرته وسد حاجات المجتمع الإسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

٦ – اختيار الطرق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس فيراعى في ذلك السن والمستوى العقلي مع العناية بالأصول والمبادىء وتقديم القضايا الهامة والعودة إلى القرآن والسنة ووصل مابينهما وبين الآراء الفقهية.

وفيما يلي إيضاح لهذه الأسس التي سردناها .

١ – وضع نظام ثقافي إسلامي موحد يزيل الازدواج الواقع في ثقافتنا .

إن الثقافة التي تكوّن الجيل المسلم في البلاد الإسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة إلى عقليتين مختلفتين .

أ – فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الإسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوربية من ابتدائية وثانوية وعالية . وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابساتها أخذت واقتبست من الثقافة الأجنبية وهي محتوية على : مواد علمية خالصة كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة ، وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوربا سواء أكانت مادية إلحادية

أم دينية ، وعلى أساليب للتعلم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية . وقد ألصق أحياناً بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي (مادة الدين) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البـــلاد الإسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطقها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قوياً بل قد يحدث من التنافر بـــين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

ان هذه الثقافة المقتبسة من بلاد تختلف عن البلادالإسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حياتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الإسلامية في جميع درجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوربية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها الى الحياة . ولا قيمة بعد هذا لبعض المظاهر الإسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الأساس الفكري ليس أساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للإسلام لأن الثقافة حتى المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الأصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وخالطت نظرياتها وتجلت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه

العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوربا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها، وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الأقل . كما ان هذه الثقافة الحديثة يجب ان يستفاد مما تشتمل عليه من أساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ففيها الكثير النافع مما وصلت إليه تجارب الإنسان في تقدمه الفكري والحضاري .

ب - أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الإسلامية فهو الثقافة الإسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الأساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بها الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الإسلام في كتابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على اختلاف منازعهم ومذاهبهم ، وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وأفكارها، ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك وانحط فيها التأليف وضاقت فيها مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الإسلام الأساسين الكتاب والسنة ، وسد باب الاجتهاد والتزمت فيها أقوال الشيوخ دون النظر الى دليل

الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الأئمة المجتهدين. أضف الى ذلك كله ما خالط الثقافة الإسلامية من علوم أخرى لاتزال تدرس كما كانت في العصور السالفة مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغيراً أساسياً كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليست هي في الأصل من العقائد حتى لاتتبدل أو من العبادات حتى يتوقف عندها بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله (الذي يزداد يوماً بعد يوم) .

وقد صيغت هذه الثقافة في قوالب جمدت وثبتت ووضعت على طرائق أصبحت قديمة تحتاج الى تجديد واصلاح وكانت لغة التعبير عنها في العصور الأخيرة تتصف في كثير من الأحيان وفي أكثر الكتب بالتعقيد والبعد عن أساليب العرب الفصيحة وتنزل كثيراً عن مستوى البلاغة التي كانت تتصف بها تصانيف السلف وتآليف المتقدمين من أهل القرون الاسلامية الأولى .

إن هذه الثقافة التي سميت ثقافة إسلامية هي مزيج من الفلسفة والعلوم القديمة وعقائد الإسلام وأحكامه ومذاهب المتصوفة والمتكلمين والفقهاء في عصور متعاقبة مختلفة وأساليب التفكير والتعبير التي تنوعت واختلفت ارتفاعاً وانخفاضاً خلال العصور .

إن هذه الثقافة هي الأساس في تكوين عقلية فريق من أبناء الجيل وهم الذين يتخرجون من المعاهد الدينية على اختلاف

درجاتها ومستوياتها ومن حلقات العلماء التي لا تزال تعقد في البيوت والمساجد والمدارس وهي مع ذلك ليست عقلية واحدة في اتجاهاتها بل هي أحياناً عقلية الفقهاء وتارة عقلية صوفية مغالية في التصوف الذي ساد العالم الإسلامي في القرون الأخيرة وتارة أخرى عقلية سلفية وبين هذه العقليات أحياناً اختلاف كبير وتنافر شديد .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الإسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات. وهو صراع له نتائجه الخطرة سواء أكانت الجهة المنتصرة هذه أو تلك لأن الصراع بني على أساس فاسد ولأنه صراع خاطىء وفاسد يصور الأوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين في جبهتين وهم ليسوا كذلك فهو يصور الثقافة الإسلامية القديمة على انها هي التي تمثل الإسلام وان انتصارها هو انتصار الإسلام وتصور (الثقافة الحديثة) على أنها تمثل حضارة كافرة عدوة للإسلام وان انتصارها على تلك الثقافة هو انتصار للكفر على الإيمان وفي كلا النظرتين يختلط الخطأ بالصواب والحق بالباطل فليس كل ما في الثقافة القديمة واجب الالتزام إسلامياً وليست كل عناصره إسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للإسلام حتى توضع في موضع الخصومة .

إن حل مشكلة الازدواج يكون باقامة نظام إسلامي موحد يبنى على تعد الاختصاصات لا على تعدد العقليات والمصادر الحضارية فيجب أن يدخل الإسلام إلى المدارس الحديثة والجامعات دخولاً طبيعياً صحيحاً فتقام على أسس إسلامية. كما يجب أن تقام المدارس الدينية والمعاهد الإسلامية العالمية على أسس جديدة فيوصل بينها وبين منابع الإسلام الأولى من جهة وبينها وبين الحياة من جهة أخرى وتستفيد من تجارب البشر وتطور العلوم وتحسن الأساليب حتى تصبح هذه المدارس وتلك من نوع واحد وعلى مستوى واحد تنتج عقلية واحدة هي العقلية الإسلامية.

فثمة ضرورة ملحة للتنسيق بين الأزهر والجامعات في مصر وبين الزيتونة والمدارس والجامعات في تونس وبين القرويين والمدارس والجامعات في المغرب لا على أساس مسخ الأزهر والزيتونة والقرويين وإلغاء دورها ومحو خصائصها الذاتية وجعلها صورة مماثلة لتلك الجامعات ونقل برامجها أو إدخال النظم الشكلية عليها أو تحويلها عن أهدافها ومفاهيمها وعقائدها الإسلامية الى فلسفات ومفاهيم أخرى مخالفة ولكن بوضع تخطيط جديد للثقافة في البلاد الإسلامية تلتزمه هذه المدارس والمعاهد والجامعات.

٢ — صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الاسلامية.

إن الواقع في البلاد الإسلامية هو أن التعلـيم بوجه عام ونعني به التعليم الرسمي الأكثر انتشاراً واتساعاً مصطبـغ بصبغة غير إسلامية ومشحون من جميع جوانبه بأفكار ومفاهيم غير إسلامية فقد أحيطت المواد الثقافية حتى العلمية الخالصة غشيت وأشربت بعقائد وأفكار وفلسفات مغايرة للإسلام وليست هي في الأصل من صميم هذه المواد ولا من مستلزماتها المنطقية ولكنها كانت وليدة ظروف الحضارة الأوربية الخاصة فنشأت العلوم في أوربا في جو هذه المذاهب والعقائد فاقترنت بها ولازمتها ثم انتقلت معها الى البلاد الإسلامية .

إن العلوم التي تدرس الكون والطبيعة وكانت جزءاً هاماً في الحضارة الاسلامية وكان للمسلمين أثر كبير في تقدمها وقد نقلها الأوربيون عنهم هي علوم ضرورية هامة إذ عليهـا تبنى حياة الإنسان المادية وتقدمه المادي وهي تحقيق قوله تعالى (سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتّى يتَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُ الحق) ولكن يجب تحريرها مما خالطها من النظريات الإلحادية والآراء السخيفة المؤلهة للطبيعة ومن التعابير المتضمنة عن قصد أو غير قصد لهذه الآراء المدسوسة فيها والتي لا علاقة لها بموضوع هذه العلوم نفسها بل هي خارجة عن اختصاصها .

إن التعليم في جميع مستوياته ودرجاته وفي أنواعه وفروعه يجب أن يبنى على أساس واحـد وتنتظمه فكرة واحدة مشتركة بين جميع أقسامه بصبغة واحدة في الاتجاه والتفكير

أساسه المشترك العقيدة الإسلامية والعقيدة، وذلك بأن يكون طبيعته العامة هي الطبيعة الإسلامية وهذه هي حال جميع البلاد التي تلتزم فلسفة معينة في الحياة وتدين بعقيدة مشتركة تتبناها الدولة كالماركسية في البلاد الشيوعية والكاثوليكية في البلاد التي تلتزمها في دستورها .

فالتعليم الابتدائي هو تعليم إسلامي في المرحلة الابتدائية والتعليم الثانوي في جميع فروعه — العام والمهني — هو كذلك تعليم إسلامي لا يكتفى فيه بتعليم الدين على أنها مادة تضاف إلى المواد الثقافية الأخرى وإنما يجب صياغة جميع المواد العلمية صياغة إسلامية حتى العلوم الطبيعية . فالكيمياء والفيزياء في البلاد الشيوعية تبنى على المنطق الجدلي والفلسفة الجدلية وتجعل تطبيقاً لقانون تصارع الأضداد الذي تعتقد الماركسية أنه قانون الحياة العام . وفي البلاد الإسلامية يجب أن تكون العلوم الطبيعية بقوانينها وجميع ظواهرها مظهراً من مظاهر قدرة الله وتحقيقاً للاتجاه القرآني في النظر إلى الكون .

وأما المواد الثقافية النظرية كالفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إليها فهي المواد الهامة التي تكون عقلية الطالب وتكون مفاهيمه وأفكاره فيجب أن يكون التاريخ مبنياً على أساس النظرة الإسلامية في تقويم الحوادث التاريخية وتفسيرها وتعليلها والحكم لها أو عليها ويجب أن يدرس (العالم الإسلامي) ويخص بالبحث في مادة مستقلة أو مع دراسة المجتمع القومي الخاص

(العربي أو الهندي أو التركي) حتى يتولد الشعور بالانتماء إلى العالم الإسلامي إلى جانب الشعور الطبيعي في الانتماء إلى الوطن والقوم الذي ينتمي إليه الطالب وحتى تكون لديه فكرة عامة عن العالم الإسلامي وأجزائه ومشكلاته ويشعر برابطة الأخوة الإسلامية شعوراً قوياً .

والفلسفة بفروعها المختلفة وخاصة علم الاجتماع يجب أن توضع لها مناهج جديدة بحيث تؤدي إلى دعم الفكرة الإسلامية وأن تكون نظرة الإسلام إلى الوجود أو فلسفته الأساسية المنبثقة من القرآن والسنة –لا ما يسمى خطأ بالفلسفة الإسلامية عادة– هي الأساس في تعليم الفلسفة، وتعرض المذاهب الفكرية الأخرى عرضاً نقدياً تكون فيه مقاييس الفكر الإسلامي بعد اقرارها وإثباتها أساساً للنقد والتقويم .

وإذا درست حينئذ المعلومات الدينية المناسبة للمستوى في مادة خاصة فإنها تؤتي ثمراتها وربما كان قسم كبير منها موزعاً في مختلف المواد الثقافية الأخرى فنظام الحكم الإسلامي قد يدرس في مادة التربية الوطنية أو المجتمع وفي القانون الدستوري في الجامعة ونظام الأسرة يدرس في علم الاجتماع، وعلى كل توضع المناهج كلها على أساس تخطيط عام فلا ينفرد أساتذة مادة من المواد بوضع منهاجها فبذلك يتم الارتباط والتنسيق بينها ويتم حسن التوزيع وينتفي التكرار .

والمهم على كل حال في تدريس الإسلام لفت النظر والاهتمام

بخطوطه العامة ومعالم عقيدته الأساسية وأهدافه وأسسه وعدم الإغراق في الجزئيات وتجنب توليد العصبية الشديدة للجزئيات والتفصيلات ولاسيما الآراء المذهبية لأن شدة الاهتمام بها وشدة التعصب لها تضعف الاهتمام بالأخطار الكبيرة المحدقة بالاسلام كخطر استعمار غير المسلمين للمسلمين وخطر الإلحاد والأفكار المتفرعة عنه وخطر الإباحية وبالجملة خطر المذاهب والأفكار المخالفة لأسس الإسلام والتي تغزو البلاد الإسلامية .

ويجب أن توضع مناهج الدين وتعلم بطريقة تجنب المسلمين الانقسام إلى معسكرات مذهبية وفرق مختلفة ما داموا في إطار المذاهب الإسلامية التي تتفق على الإيمان بالله ورسله وخاتم أنبيائه وبالقرآن كتاباً منزلاً وشريعة واجبة الاتباع ، وأما ما وراء ذلك من المذاهب الفقهية المختلفة والمذاهب الكلامية فمبناها على التوسع والتسامح لا على التضييق والتعصب وعلى اللقاء والمودة لا على التشاحن والجفاء .

أما التعليم الجامعي في البلاد الإسلامية فيجب أن يكون ثمة نصيب شائع مشترك في جميع أقسامه وكلياته من الثقافة الإسلامية الأساسية التي تعطي فكرة عامة عن الإسلام ونظامه في مقابل الأنظمة العقائدية الأخرى كالديمقراطية والماركسية أو الاشتراكية كما هي الحال في البلاد الاشتراكية التي تعلم العقيدة الماركسية حتى في كليات الهندسة والطب والعلوم ويمكن أن تسمى هذه المادة التي تعمم على جميع

الكليات باسم (نظام الإسلام) أو باسم (الثقافة الإسلامية الأساسية) أو (حضارة الاسلام) . ويعنى بالثقافة الإسلامية بوجه خاص في الكليات التي لها علاقة خاصة بها من حيث موضوعها ويوضع لها منهاج بحسب اختصاص الكلية ففي كلية الحقوق تكون دراسة الحقوق الإسلامية هي الأساس الذي تبنى عليه الدراسة لا أن تكون مادة الشريعة الإسلامية مادة ملحقة وملصقة بمنهاج حقوقي مقتبس من أنظمة الغرب الأجنبية وفي كلية الآداب يعتنى بدراسة الإسلام عناية خاصة في قسمي الفلسفة والتاريخ بحيث يكون أساساً تبنى عليه الدراسة فيهما ويتوسع في دراسة الجوانب المتعلقة بكل فرع من هذه الفروع من الثقافة الإسلامية وكذلك الحال في قسم اللغة العربية حيث يعتنى بدراسة القرآن والحديث وتاريخ الأدب بوجه عام والأدب الإسلامي بوجه خاص ولا سيا الأدب الإسلامي المقارن بين لغات الشعوب الإسلامية . أما كلية التربية في الجامعات الإسلامية فهي في الحقيقة كلية أساسية هدفها دراسة الطرق العلمية وأفضل الأساليب التي بها يمكن أن يعلم الدين وتنهض التربية الإسلامية وينشر الإسلام فيدرس علم النفس وعلم الاجتماع وأصول التربية العامة والخاصة في سبيل اختيار أحسن الطرق لتخريج المعلمين والمدرسين والمربين والدعاة سواء في المدارس أو في المجتمع .

٣ ـ أما الأسس الأخرى التي ذكرناها من إحداث وعي إسلامي ووصل ما بين الدين والحياة والأخذ بالأساليب الحديثة الصالحة التي تؤدي الى حسن تقبل الدين وتعاليمه وحسن تفهمه والانطباع بطابعه فلا بد لها من دراسة تقوم بها لجان مختصة لوضع خطة تفصيلية لتحقيق هذه الأهداف .

وسائل لتحقيق الأهداف :

إن وضع الخطط التفصيلية لنظام ثقافي إسلامي يحقق الشروط التي ذكرناها وهي انبثاقه عن الفكرة الإسلامية وتلبيته لحاجات المجتمع الحديث وقدرته على الوقوف بقوة أمام الأنظمة الثقافية الأخرى من ديمقراطية وماركسية وغيرها يحتاج إلى :

١ ـ تقارير تفصيلية عن الوضع الثقافي في كل بلد إسلامي يضعه خبراء في ضوء الأفكار التي شرحناها .

٢ ـ تأليف لجان اختصاصية يضمها مؤتمر إسلامي عام يعقد لشؤون التربية والثقافة خصيصاً ، لتضع كل منها الخطة التفصيلية لكل من جوانب هذا النظام الثقافي .

٣ ـ اقامة مؤتمر إسلامي عام لشؤون التربية والتعليم والثقافة يناقش الخطط ويقرها في شكلها النهائي .

٤ ـ اتخاذ الوسائل وسلوك الطرق لاقناع حكومات البلاد

الإسلامية بالأخذ بهذه الخطط بعد القيام بالدعاية لها في الرأي العام الإسلامي .

هذا ما رأيته بعد اطلاعي على حالة الثقافة في كثير من البلاد الإسلامية وبعد أن خبرتهـــا خبرة ممارسة واختصاص خلال سنوات عديدة أرجو أن تكون محلاً للنظر وموضعاً للنقد وابداء الملاحظات من أهل الرأي والاختصاص للوصول إلى النتائج الصحيحة لبعث الإسلام واحياء فكرته وعقيدته ونظامه في هذا العصر الذي هو أحوج ما يكون إليه .

نحو فلسفة إسلامية للتربية

- ١ -

إن غاية التربية في كل بلد اتخـــاذ أحسن الطرق لتكوين الانسان المثالي في نظر ذلك المجتمع وإعداد الجيل وتأهيله من النواحي العلمية والعملية والخلقية التأهيل الذي يجعله يسد حاجات ذلك المجتمع ويحقق أهدافه ومثله العليا وينسجم معها . ومن هنا كانت في العالم فلسفات للتربية لا فلسفة واحدة تختلف باختلاف (الأجواء العقائدية) التي تعيش فيها الثقافات بألوانها . وإذا استثنينا العلوم المادية المحضة وجدنا أن في العالم ثقافات إنسانية مختلفة ومتعددة بتعدد النظم العقائدية (الايديولوجيات) فهنالك تربية ماركسية وتربية مسيحية كاثوليكية وتربية ديمقراطية ، ذلك أن كل واحدة

هذه خلاصة لبحث مفصل ألقي في ندوة استمرت عدة أيام لمناقشة هذا الموضوع في قاعة الامتحانات في جامعة الخرطوم بدعوة من جمعية الفكر الإسلامي فيها واشترك فيها عدد من الأساتذة والاخصائيين في عام ١٩٦٦ وأرجو أن تتاح لي الفرصة لنشر تفصيل هذا البحث .

منها تنبثق عن فلسفة معينة لها نظرية معينة إلى الانسان كما هو في الواقع ونظرة إلى الانسان كما يجب أن يكون ، وكذلك إلى المجتمع في واقعه وفي الشكل الذي يجب إيصاله إليه . والتربية تستهدف نقل الانسان الواقعي الى الانسان المثالي ، ولكل فلسفة من الفلسفات نظرتها إلى الإنسان في واقعه وإلى ما يجب أن يكون عليه .

أما التربية في جانبها الآخر الذي هو الأساليب والطرائق فذلك موضوع مختلف قد يكون موضع اتفاق بين أصحاب الفلسفات المتعارضة ، وليس هو موضوع عنايتنا الآن في هذا البحث . وإذا كان الأمر كما أوضحنا ، فهل نملك الآن فلسفة إسلامية للتربية ؟ أو ليس للإسلام نظرة إلى الإنسان في واقعه ونظرة إلى الانسان المثالي أو ما يجب أن يكون عليه وإلى الأهداف التي يجب أن يحققها في المجتمع ؟ لا شك أن الجواب على هذا السؤال إيجابي ، وعلى هذا يجب أن يكون ثمة فلسفة للتربية أو أسس للتربية تتصف بكونها إسلامية كما تتصف غيرها بكونها ماركسية أو ديمقراطية أو مسيحية كاثوليكية أو مسيحية بروتستانتية. وإن واقع البلاد الإسلامية إنها تأخذ في كليات التربية ببعض هذه الفلسفات لا بفلسفة اسلامية للتربية . ونرى أن من الواجب المحتم على الاخصائيين وضع مثل هذه الأسس أو الفلسفة الإسلامية للتربية ومن رأينا انها تستمد قوامها من العناصر الآتية :

١ – نظرة عقائدية شاملة للإسلام وواضحة .

٢ – نظرة الإسلام إلى الإنسان الواقعي وإلى الإنسان المثـــالي .

٣ – نظرة الإسلام إلى المجتمع المثالي إنطلاقاً من المجتمع الواقعي الحاضر مع مراعاة ظروف المرحلة التي نعيش فيها من سائر النواحي والمجالات .

– ٢ –

ويشتمل القسم الأول على نظـــرة الإسلام إلى الكون (الطبيعة) والإنسان والله وصلة الإنسان بالله وبالكون ونظرته إلى المعرفة ومصدريها العقل والوحي كل في مجاله .

ويشتمل القسم الثاني على نظرة الإسلام إلى الإنسان وتركيبه وأنه يتألف من عناصر أو جوانب ترابية وحيوانية وعقلية وروحية وكذلك ميوله وغرائزه الواقعية واستعداده لطريقي الخير والشر كما يشتمل هــذا القسم على (الإنسان المثالي) في نظر القرآن وعلى (نظام القيم) في الإسلام أي موقع كل من القوة والعمل والعقل وغيرها من القيم في نظامه الأخلاقي وكل ذلك كما يستنبط ويتجلى في القرآن الكريم وكما توضحه السنة حين الحاجة للايضاح .

– ٣ –

وبعد عرض هذه العناصر التي تمثل النظرة العقائدية العامة للإسلام والنظرة الواقعية للإنسان الفـــرد والمجتمع والنظرة

الخلقية للإنسان الفرد والمجتمع ، يبدو عمل التربية واضحاً وهو اتخاذ أحسن الطرق لنقل الانسان من الصورة الواقعية إلى الصورة المثالية بوجه عام وإلى النماذج المتعددة التي يتطلبها المجتمع المثالي سواء من جهة التربية الجسمية أو الحسية أو العقلية أو الخلقية أو الروحية ، وتكون هذه الفلسفة التربية الإسلامية ملخصة حينئذ في تنمية جميع عناصر التركيب الانساني مرتبة ترتيبها في الأهمية على هذا التسلسل .

الجانب الترابي — الحيواني

جانب الحواس والعقل

الجانب الروحي والخلقي (وفقاً لاتجاه وأهداف محددة في الإسلام) .

ويكون إعداد هذا الانسان متناسباً مع أهداف المجتمع الذي يراه الإسلام مثالياً .

— ٤ —

إن أولى واجبات التعليم في البلاد الإسلامية تلقين النظرة العقائدية الشاملة للإسلام والنظرة الخلقية بطريقة واحدة مترابطة وشاملة .

وإن تدريس جميع المواد الثقافية بلا استثناء يجب أن يجري في جو هذه العقائدية الإسلامية وبذلك ترتبط هذه

المواد بعضها ببعض لأن هذه النظرة نفسها تكون هي الرابطة والمنسقة لها ويكون الدين بمعنى العبادة أحد هذه المواد ولكن النظرة الإسلامية تكون شاملة لجميع المواد ومنها الدين بمعناه الضيق والمحدود . ويمكن أن تشرح وتفصل هذه الخطة بالنسبة لجميع المواد وعلى جميع مستويات التعليم .

- ٥ -

إن واقع التعليم حالياً مخالف لهذا كل المخالفة لما ذكرنا لأنه يلقن جميع المواد في جو عقائدي ووفقاً لفلسفات وعلى أساس مفاهيم مخالفة للإسلام ، ويدرس إلى جانبها الإسلام في صورة درس (الدين) وعلى أسلوب سيء مشوش ومضطرب في كثير من الأحيان ومن هنا نشأت العقد الفكرية والتناقضات في عقلية الجيل المسلم التي توجد عنده الاستعداد للانحراف أو الخروج عن الإسلام فيما بعد إذا صادفته ظروف فكرية أو نفسية تنمي هذه التناقضات وهو ما يحدث كثيراً .

إن تعاون الاخصائيين في علم النفس والاجتماع والتربية من المؤمنين بالاسلام والمزودين بثقافة إسلامية كافية يوصلنا إلى إقامة نظرية إسلامية للتربية وأسس أو فلسفة للتربية بتوضيح النقاط السابقة وتفصيلها ويؤدي ذلك في نظري إلى نتائج هامة تربوياً وخلقياً ويوفر علينا كثيراً من الأزمات الواقعة في مجتمعنا في مختلف المجالات ويجعل كليات التربية في البلاد الاسلامية منتجة لا مستوردة ويمكنها أن تتفاعل وتتبادل

وجهات النظر على أساس المساواة على الأقل مع مثيلاتها في البلاد الأخرى التي تدين بفلسفات مغايرة . وأمـــا التربية باعتبارها صناعة وفناً موضوعه الطرق المفصلة لتنمية بعض الجوانب أو تدريس المواد العلمية وما يتبع ذلك من الأمور فهي مشاعة بين الناس على اختلاف فلسفاتهم ومذاهبهم وإن ما يستحوذ الآن على تفكيرنا هو الجانب الأول من التربية وهو أسس التربية وفلسفتها ليكون لنـــا في هذا الجانب استقلال كاستقلال أصحاب المذاهب والفلسفات الأخرى في سائر بلاد العالم .



كيف نكتب تاريخنا

وجهت مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية أسئلة لعدد من الأساتذة لطرح الأجوبة على بساط البحث والمناقشة والبحث التالي كان جوابي على جملة هذه الأسئلة وقد نشر مع أجوبة الأساتذة الآخرين في العدد (٤١) في شهر تموز (يوليو) ١٩٦٥ من المجلة .

وهذه هي الأسئلة :

١ – ما رأيكم في المصادر المتوفرة حالياً عن التاريخ العربي ؟

٢ – ما هي الشوائب التي تحط من قيمة تاريخنا والتي ينبغي التخلص منها ؟

٣ – ما هو قولكم في الرأي الذي يعتقد ان صيغة التاريخ المتوفرة حالياً تقتصر على تاريخ الملوك فحسب دون الشعب .

٤ – تجري في بلدان كثيرة محاولات لاعادة كتابة التاريخ وفقاً للتغير المذهبي الذي تناول شكل المجتمع ..
أفلا ترون ضرورة ذلك بالنسبة لتاريخنا العربي ؟

٥–ما هي المبادىء التي يمكن ان تعاد بموجبها كتابة التاريخ؟

٦ – في هذه الحالة أتتصورون منهجاً معيناً لهذه العملية؟
ثم كيف يمكن ان تسد مشكلة المصادر ؟

ان دراسة التاريخ دراسة موحية وموجهة وحافزة ، وإن تكن تصويراً لوقائع ماضيه ومحاولة لنقل الحقيقة كما هي ، مع انتقاء هذه الوقائع وطريقة عرضها، تؤثر تأثيراً قويا في تفكير الجيل الذي يدرس هذا التاريخ وفي نفسيته وعواطفه.

ان التاريخ القومي يشتمل على وصف الاتجاهات الصالحة والصفات الطيبة والمكاسب الحضارية العامة ليستمر الجيل في سلوك الطريق القويمة ويناضل في سبيل المثل العليا . كما يشتمل على المساوىء والظاهرات التي تعتبر أمراضاً اجتماعية وأسباباً للانحطاط أو الهلاك كمظاهر الترف في العصر العباسي وفي أواخر العصر الأندلسي وكالاستبداد الفردي الذي ساد في بعض العصور ، ليحاول الجيل دفعها عن مجتمعه الحاضر .

فتاريخ كل أمة يعطي صورة عنها ويحدد موقعها بالنسبة إلى تواريخ الأمم الأخرى، ويشعر الجيل الجديد بموقعه من أمته بين ماضيها ومستقبلها ليتخذ لنفسه طريقاً للسلوك .

وتاريخنا في العصر الحاضر في حاجـة إلى إخراج جديد ذلك انه أصيب بآفتين إحداهما ماأصابه من إسفاف وسطحية في عصر الانحطاط الأخير وثانيتهما وهي أدهى وأمر ما أصابه بسبب التقليد الأعمى للتاريخ الأوربي ومفاهيمه ونقـل مشكلاته نقلاً والتأثر بنظرات أعدائنا تارة أو الأجانب الذين لايحسنون فهم تاريخنا وأحكامهم الخاطئة أو المـدسوسة من المؤرخين الأوربيين والمستشرقين .

نحن في حاجة إلى نظرة واعية صحيحة لتاريخنا مطابقة لذاتيتنا فيها استمرار لمثلنا العليامنسجمة مع مفاهيمناونظراتنا ترينا مفاخرنا الصحيحة حتىنلتزمها ونكملها وعيوبناواخطاءنا حتى نتجنبها . ولا بد لكتابة التاريخ تحقيقاً لهـذه الغاية من شروط يجب التزامها أو مبادىء يجب مراعاتها وهي :

١ – الفهم الصحيح لتاريخنا وخصائصه .

٢ – استجلاء منطق هذا التاريخ دون تشويه بفرض مذاهب جديدة عليه أو تفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه أو الاندفاع فيه بدافع العصبية .

٣ – تقويمه بمقاييس انسانية مشتركة وتحديد موقـع حضارتنا من الحضارات العالمية الاخرى .

٤ – إحياء التراث وجمع المصادر لاستجلاء هذا التاريخ استجلاء صحيحاً .

أما الشرط الأول

إن لكل تاريخ (صيغة حضارية) تنظم حوادثه ودوافع نفسية اجتماعية منبثقة من ظروفه الخاصة وإنما يفسر كل تاريخ بصيغته الخاصة ودوافعه وأن الخطأ الكبير هو تفسير تاريخ ما بمنطق تاريخ آخر .

وأن الصيغة الحضارية لتاريخ العرب التي تحـــدد معالمه الذاتية بالنسبة إلى غيره والتي اختارها العرب لحضارتهم أو التي أدت ظروف القدر التاريخي أن تكون صيغة حضارتهم هي إيمانهم بإيجـــاد حضارة إنسانية تجتمع عليها الشعوب والأقوام على صعيد مشترك من المفاهيم الفكرية ونظم الحياة التي تتحقق فيها المساواة بين البشر وإقـامة العدل وسائر المثل العليا التي تتقدم بالبشرية مادياً ومعنوياً وقـد كان (الإسلام) هو جمـــاع هذه المثل العليا وهو أساس هذه الحضارة وكان العرب هم المؤمنون بـــه أولاً والداعون إلى حضارته والمجاهدون في سبيل توطيدها والمشرفون على بنائها. وكانت خصالهم ومكارمهم الطيبة في العصر الجاهلي خير أداة مهيئة لهذه القدرة على التنفيذ والاضطلاع بعبء الرسالة . وقد تحققت فعلاً هذه الحضارة وكانت أعظم خصائص التاريخ العربي اتصاله بهذه الرسالة وهذه الحضارة ، وأعظم منجزاته مما لم يسبقوا اليه هو تأسيسهم لحضارة تتعاون على صعيدها المشترك على أساس من الحرية والمساواة والعدالة شعوب عديدة

آمنت برسالة الإسلام أو قبلت الانضواء تحت لواء نظامه وحضارته فكان موقع العرب في هذه الحضارة هو موقع (الدعاة) لها و (البناة) و (القادة) المشرفين على التنفيذ وعلى تحقيق هذا التعاون في سائر مجالات الحياة .

ان كل كتابة أو صياغة للتاريخ تتجاهل هذه الحقيقة الموضوعية أو تتجنبها أو تقحم عليها نظرة أخرى غريبة عنها تفسد هذا التاريخ ، بل تفقده أهم مكاسبه الانسانية والحضارية وهي حقيقة موضوعية تبدو لكل باحث متجرد مهما تكن نحلته أو قوميته .

إن هذه النظرية عدا كونها حقيقة ، تجعل من العرب شعباً رائداً للانسانية ، مجاهداً في سبيلها من غير أثرة ولا استعلاء . وأما صيغة (الامبراطورية العربية) مثلاً فهي تجعلنا في صف المستعمرين وتصمنا بوصمة الاستعمار و(الامبريالية) التي تعني في لغتها الأعجمية الاستبداد الفردي في الحكم واستعلاء شعب حاكم على شعوب محكومة !

الشرط الثاني

إن هذا الأساس الأول الذي قدمناه هو الذي يمكننا من استجلاء منطق التاريخ العربي ، ومعرفة البواعث النفسية الأساسية المحركة ، فإذا أضفنا اليه العوامل المساعدة والظروف المحيطة في كل عصر ومرحلة تمكنا من تفسير التاريخ وتعليل حوادثه .

ولذلك يجب أن نتجنب في كتابة تاريخنا اقحام نظريات غريبة عنه كانت وليدة ظروف تواريخ شعوب أخرى تمخضت عنها أحوالهم وظروفهم فـــلا يمكن أن تفسر الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدين بالتفتيش عن المواد الأولية أو إيجاد سوق استهلاكية ولا بتحقيق مجد قومي وإن من السذاجة أو التلفيق التاريخي (Anachronisme) أن نقسم الصحابة إلى يمنيين ويساريين وإلى أجنحة يسارية معتدلة ومتطرفة . إن الأساس في الفتوحات وفي تصرفات الراشدين وتفكير الصحابة المحيطين بهم هو بالدرجة الأولى إيمانهم برسالة الإسلام وتحقيقها في المجتمعات البشرية وهذا لا يمنع أن تكون لكل منهم ضمن هذا النطاق آراء خاصة هي نتيجة ظروفهم الخاصة وتكوينهم الشخصي .

ان تطبيق نظريات حديثة هي وليدة ظروف معينة في بيئة معينة كالماركسية وغيرها على تاريخنـــا العربي هو تغيير لمنطق التاريخ ونحل شخصيات تاريخ ما نفسيات تاريخ آخر وهو ما سميناه بالتلفيق الزمني أو التاريخي .

ان انطلاقة العرب الكبرى لا تفسر لا بالنسبة للأفراد ولا بالنسبة إلى جمهور الشعب العربي يومئذ ، لا بدافع اقتصادي ولا بتغير آلة الانتاج، ولا بتغير نظام التملك لوسائل الانتاج، ولا بدافع المجد القومي وإنما تفسر بالدرجة الأولى (بالإسلام)

الذي آمن به العرب ولا مانع من أن تكون هناك عوامل إضافية مساعدة .

يجب أن تكون الحقيقة الموضوعية أساساً في بيان المفاخر والأمجاد والمساوىء والأخطاء ولسنا في حاجة بدافع من العصبية القومية إلى انتحال المفاخر فإن في تاريخنا من المآثر الحقيقية ما يغنينا عن ذلك .

إن النظرة القومية الضيقة التي تتجاهل الاتجاه الانساني للقوميات الذي يمثل خط التطور الطبيعي للبشرية . أصبحت نظرة متخلفة في الشعوب الراقية ، وغدا الاتجاه نحو التعايش السلمي ، بل التعاون الإنساني هو الاتجاه الذي يمثل التقدم في البشرية ، ولذلك فإن الذين يريدون أن يكتبوا تاريخ العرب بوحي من هذه النظرة القومية الضيقة، يعملون لعصور انقضت، ويعاكسون اتجاه التطور السليم ، نحو التقاء الشعوب على صعيد إنساني مشترك . دون أن تضيع ذاتيتها وهم كذلك يفرضون على تاريخنا منطقاً غير منطقه بل يقللون من شأن التاريخ العربي الذي كان له دور إنساني عام وكان هذا من أعظم مآثره ومفاخره . وقد بلغ الجهل أو الغرض ببعض من يكتبون في هذه الموضوعات أن يلمحوا أن العصر الجاهلي هو عصر الازدهار وقد أسقطوا بذلك أعظم مفاخر العرب أنفسهم في بناء الحضارة الانسانية التي قامت بالإسلام وفي نشر المبادىء الإنسانية التي حملوا رسالتها . وهذا كلام بالاضافة

إلى كونه جهلاً بالحقائق التاريخية ينطوي على لون من الشعوبية هو من أقبح ألوانها حقداً وضلالاً .

ونضيف هنا أن تقليد التاريخ الأوربي تقليداً أعمى أدّى بنا أحياناً إلى نقل مشكلات خاصة به وليست هي مشكلات في تاريخنا أو لها شكل آخر ومن أمثلة ذلك الخلط بين النظام الاقطاعي في أوربا وهو نظام حقوقي معترف به يقيم علاقات جائرة بين الفلاح وصاحب الاقطاع وبين الملكية الكبيرة أو الواسعة التي ظهرت في عصورنا التاريخيـــة ، ومنها مشكلة الصراع بين الدين والعلم في أوربا وما شابه ذلك من مشكلات غريبة عنا أو لها وضع آخر .

الشرط الثالث

وهو نتيجة للشرط الثاني . وذلك بأن نضع تاريخنا في موقعه من التواريخ ، وحضارتنا في موقعها من الحضارات ، وان نقوّم تاريخنا لا بمقاييس خاصة بل بمقاييس إنسانية مشتركة ونحن اذا كتبنا تاريخنا على أساس الصيغة الحضارية التي رسمها الإسلام استطعنا ان نقول للبشرية جميعاً أننا حققنا مكاسب إنسانية لا مكاسب قومية خاصة فحسب . فقد حققنا التعاون الثقافي بـــين شعوب مختلفة وكان لذلك نتائج باهرة وتقدمنا بالفكرة الإنسانية المتحررة من استعلاء الإنسان على الإنسان فرداً أو جماعة أو شعباً ، وترجمناها في مؤسسات اجتماعية وفي تشريع . إن الأساس الذي اقترحناه لكتابة تاريخنا والصيغة

الحضارية التي رأينا أنها تمثل ذاتية هذا التاريخ كما تمثل في الوقت نفسه إنسانية تمتاز بالمزايا الآتية :

١ ــ انها تفسر هذا التاريخ العربي تفسيراً سليماً بالاضافة إلى العوامل الأخرى التي تقدمها لنا ظروف كل حقبة تاريخية . ذلك انها تفسره بدوافعه الحقيقية الأساسية وهو شعور العربي أو وعيه للاضطلاع بعبء رسالة إنسانية عامة تتجاوز بساحتها حدود أرضه وقوميته وقد لخصها أحسن تلخيص رسول الجيش العربي الفاتح إلى قائد الفرس وهو الصحابي ربعي بن عامر إذ قال جواباً على مساومة القائد الفارسي : إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله (وذلك هو تحريرهم من كل عبودية) ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (وذلك هو العدل الاجتماعي) .

٢ ــ انها تمدنا بقيم نقوّم بها حوادث هذا التاريخ وعصوره وأشخاصه اصلاحاً وفساداً وبمقاييس قاس بها أسلافنا فعلا أعمال الحكام من خلفاء وغيرهم وحكموا عليهم بالاستقامة أو الانحراف بمقدار تحقيقهم لأهداف هذه الحضارة الخيرة الإنسانية أو تجافيهم عنها . فلم يكن تاريخنا سجلاً لمفاخر أفراد أو أبطال يؤلهون بل سجلاً لصفحات حضارة ولمكاسب إنسانية تتسع دائرتها على الأرض وتشمل شعوباً وجماعات إنسانية ، ولم يكن الأشخاص في ذلك التاريخ إلا منفذين يحكم عليهم بمقاييسه وليسوا هم الحاكمين عليه ، ولذلك كان

بدء تدوين هذا التاريخ في تسجيل (الفتوحات)و(الغزوات) لا في تراجم الملوك أو الخلفاء .

٣ - انها تبرز أعظم مـا قدم العرب إلى الإنسانية وهو ليس ثروة مـادية تفنى ، ولكنه لغة ثقافة إنسانية وهي (العربية) ومبادىء إنسانية تجلت في دين هـو (الإسلام) انبثق عنه تقدم فكري ورقي خلقي ومؤسسات اجـتماعية وحضارة إنسانية .

٤ - انها تحفظ صلاتنا الأخوية الإنسانية بشعوب تعاونت مع العرب وقبلت حكمهم عن طواعية إيماناً برسالة الإسلام المشتركة وما تضمنته من مثل عليا ، وكانت مشاركة في الثقافة ومجالات الحيـاة الأخرى ، ولم تكن مستعمرة ولا مستعبدة خلافاً لصلات اليونان والرومان مع الشعوب التي حكموها .

٥ - انها تحل مشكلة وصف الحضارة التي تنسب إلى هذا التاريخ فـإذا اعتبرت لغتها الأساسية وبناتها الأولون فهي حضارة عربية ، وإذا لوحظت المبادىء التي شيدت عليها فهي حضارة إسلامية .

٦ - إنه لا ضير فيها في الوقت نفسه على غير المسلمين من أبناء العروبة ، فالإسلام بهذا المعنى الحضاري هو تراثهم القومي وثقافته ثقافتهم ، وقد أخذ بهذه النظرة الكتّاب والمفكرون من مسيحيي العرب كالدكتور نقـولا زيادة

وفيلكس فـارس ، وجورج انطونيوس ، ونبيه فارس ، وجميل صليبا وغيرهم فيما كتبوا وألفوا ، وان ولاءهم للحقيقة وولاءهم لقومهم العرب وتاريخهم ليحملهم على المسير في جادة الحقيقة الواضحة .

٧ — وعلى هذا فليست إعادة كتابة التاريخ إلا لتحريره من سطحية عصر الانحطاط ، ومن فقدان الوعي الذاتي ، ومن دس المؤرخـين الأجانب أو جهلهم ، ومن التقليد الأعجمي للنظريات الأجنبية الغربية ، ولإظهار الاتجاهات الإنسانية والتقدمية الأصيلة في تاريخنا وليس من أجـل أي تغيير مذهبي .

مصادرنا التاريخية :

إن المكتبة العربية غنية بالمصادر التاريخية وهي كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة في درجة الثقة بهـا وهي نوعان : كتب معروفة على أنها كتب تاريخ كآثار الطبري والمسعودي ومسكويه وابن الأثير وابن كثير وابن الطقطقي وابن خلدون وكتب المغازي والفتوح كالبلاذري ، وكتب الطبقات والتراجم وهي كثيرة جداً ، ومنها كتب هي مصادر تاريخية ككتب الأدب كالعقد الفريد والأغاني وعيون الأخبار وهى كذلك كثيرة وغنية بمعلوماتهـا ، وكتب الفتاوى الفقهية ، وكتب الحسبة والرحلات وغير هذه الأنواع من المؤلفات والآثار التي لا تحصى ، وهذا النوع من الكتب غير التاريخية في ظاهرها

ربما كان أعظم في قيمته وفي سعة أفقه ومـادته من كتب التاريخ نفسها .

أما ما يقال من أن التاريخ المدوّن هو تاريخ المـلوك والرؤساء فلا ينطبق على تاريخنا ولو انطبق على كثير من تواريخ الأمم ، فإن أول ما دوّن من التاريخ عندنا لم يكن سيرة أبي بكر وعمر والخلفاء وإنمـا كان كتب المغازي والفتوح ،فكان اهتمام الناس بما حصل أيام عمر مثلاً من فتوح أو من خطط سياسية أو أقضية أو مشكلات، ولذلك لم تكن تلك المؤلفات موضوعة لخدمة الخليفة عمر أو للإشادة بـه ، بل كانت مشتملة في كثير من الأحيان على مـا كان يوجه من نقد للخليفة أو الوالي من قبل الناس ، ولا سيما من أهـل الرأي من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة .

وإذا كان قد حصل هذا ففي العصور المتأخرة ولم يعرف تاريخ أمة من الأمم بوضع حكامه وقادته وملوكه على مائدة التشريح وتعريضهم للنقد ابتداء من الخلفاء الراشدين أنفسهم ، كما عرف تاريخنـا وأن كثيراً من الخلافات نشأت بسبب اختلاف آراء الناس في الخلفاء ، وبسبب هذه الحرية الواسعة في النقد .

كما أن المنهج العلمي في تحقيق حوادث التاريخ ونقدها بلغ في تراثنا درجة رائعة لم تبلغها الحضارات السابقة بل الحضارة الحديثة في بعض جوانبها .

المرأة بين حضارتين

إن مشكلة المرأة والأسرة وتوزع الأعمال بين الرجل والمرأة ومسلك كل منهما في الأسرة ، وخارج الأسرة هي في الواقع من أكبر المشكلات التي نجابهها في العصر الحاضر ، والتي تظهر فينا صفة التبعية والتقليد إلى درجة مخزية ، وهي ناحية من نواحي الحياة التي جرفنا فيها تيار جديد أفقدنا الكثير من خصائصنا العربية والإسلامية في آن واحد ، وعمّ حتى يكاد يشمل جميع الطبقات ونحتاج إلى ثورة عنيفة عميقة تستمد قوتها من إيماننا بحضارة الإسلام وصحة عقيدته ومثله العليا وأحكامه الأخلاقية لنتحرر من هذه التبعية الشائنة لحضارة الغرب ونظامها الاجتماعي ومفاهيمها وأفكارها .

وأستطيع القول بلا مبالغة ان أكثرية سكان المدن في البلاد العربية والإسلامية عامة ، والريف مقتف أثر المدن ، تعيش في نظام ينتهي إلى الإباحية الجنسية ، ولا يكترث بالنتائج العاجلة والآجلة التي هي اعتبار (حادثة الزنى) أمراً عادياً لا يهز الضمير ولا يثير النخوة ولا يفكك الأسرة

ولا أستثني من هذا الحكم – وأنا آسف – كثيرين ممن يوصفون بالتدين ويقيمون شعائر الدين الظاهرة .

وإيضاحاً لهذا الكلام المجمل أقول إن في العالم قديمه وحديثه المتمدن منه والمتأخر نظامين للحياة الاجتماعية المتعلقة بالأسرة والمرأة والحياة الجنسية ، أحدهما يقوم على ضرورة حصر الحياة الجنسية والتمتع بها في نطاق الأسرة أو الحياة الزوجية وتتفرع عن ذلك جميع العادات المتصلة بحياة المرأة والرجل ، بحيث تؤدي إلى تلك الغاية وتنسجم معها وتعضدها فلا إثارة للغريزة في السوق والشارع والمجالس والمجتمعات ، ولا إثارة للغريزة عن طريق عري المرأة وتزينها وتبرجها ، ولا فسح المجال للاختلاط المزدوج والخلوات الخاصة ، وكل ذلك مقترن بآداب وأعراف وتقاليد ومعتقدات وأحكام خلقية وأحكام تشريعية .

أما النظام الآخر وهو رائج في حضارات أخرى سواء أكانت قديمة ابتدائية أم حديثة متمدنة – فلا علاقة للحداثة والقدم ولا للتقدم المادي أو التخلف بذلك – ويقوم هذا النظام على التساهل في موضوع العلاقات بين الرجل والمرأة وعدم الاهتمام بحصر الحياة الجنسية وتحقيق متعتها في نطاق الحياة الزوجية بل يسود الاعتقاد في مثل هذا النظام بحرية هذه الصلات وعدم التفريق الكبير بين تحقيق الحياة الجنسية في صورة حياة زوجية أو علاقة زنى .

نعم إن الحياة الزوجية وحياة الأسرة موجودة ولكن لا يجد أصحاب هذا النظام أمراً كبيراً إذا حدثت صلات جنسية تامة بين غير المتزوجين من الرجال والنساء ، وربما أدى الأمر إلى الاستخفاف بأمر هذه الصلات إذا حدثت من أناس متزوجين من الرجال أو من النساء ، وواقع البلاد الأوربية والأمريكية هو هذا كما هو معروف ومتحقق لدى من أقاموا مدة طويلة في تلك البلاد ، وهذا لا يمنع ان يوجد فيهم من لا يرضى بهذه الحال أو من يحتفظ بشيء من العفة والحصانة ، ولكنه قليل نادر والشائع خلافه ، وفي مثل هذا النظام تنشأ عادات تنسجم معه ، وتتفرع عنه ، فتزين المرأة في المجتمع والزينة والألبسة المثيرة لشهوة الرجل واختلاط النساء بالرجال جماعات وفرادى وتنظيم الحياة على أساس إمكان فسح المجال بشكل مشروع ومنظم لخلوة الرجل بالمرأة مدة طويلة ومتكررة وتأمين هذا اللقاء وتكرره ، ونشوء الجيل الجديد وخاصة من سن الخامسة عشرة حتى الخامسة والعشرين ، وفي كل سن بوجه عام ، في هذا الجو المثير في ظروف لا يسهل فيها الزواج لأسباب اجتماعية كثيرة ، إن ذلك كله ليس إلا عادات تحقق هذا النظام وتنسجم معه وتتفرع عنه وتوصله إلى غاياته وأهدافه التي هي الاباحية في العلاقات الجنسية والشيوع وعدم التخصيص. وينشأ الأحداث والشبان خاصة وقد تعودوا على الإثارة واستخفوا بأمر هذه العلاقات واعتادوا ممارستها في أي وقت شاؤوا فلا يحصنهم زواج ولا تحصرهم أسرة ولا حياة زوجية ، ولا سيما أن

الفترة الواقعة في المجتمع الحديث بين سن البلوغ وسن الزواج أصبحت طويلة تزيد على عشر سنين ، تلك هي الحقيقة التي لا مهرب منها . فنحن بين نظامين : نظام العفة والأسرةوالزواج ونظام الاباحية الجنسية ولو وجدت الأسرة . ولكل منهذين النظامين عادات وتقاليد وأفكار وتشريعات وقوانين تتفرع عنه وتنسجم معه . وعلينا ان نختار ولا سبيل الى المزج بين النظامين فإذا اخذنا نظام تزينالمرأة وتعريها وتبرجها وتعطرها ونظام المجتمع المختلط في البيوت والأسواق والمدارس والدوائر ونظام المساواة التامة بين أعمال المرأة وأعمال الرجل المؤدية الى هذا الاختلاط والى تسهيله وتسهيل الانفراد والاختلاء فلا يمكن أبداً ان ندعي أننا أخذنا بنظام العفة والحصانة ونظام الأسرة حصراً . وليست القضية كما يزعم أحياناً أنصار كل من النظامين في جزئية من هذه الجزئيات فليس كشف وجه المرأة أو تغطيته هو الفاصل بين النظامين . فتلك نظرة سطحية . ولكن هنالك مجموع عادات وشعارات وتقاليد وتنظيمات تتعاون وتتساند وتتجاوب حتى تؤدي الى النتيجة التي هي غاية أحد النظامين . وأحب كذلك ان الفت النظر الى أمر آخر وهو ان الحكم الذي ذكرناه هو الحكم العام أو الغالب . فليس من الضروري ان ينطبق على كل فرد ، فمن الممكن جداً ان يكون في بعض أفراد نظام الاباحية محصنون اعفاء . وفي بعض أفراد نظام العفة متحللون . وليس من الضروري أن يؤدي الأخذ بعادات وتقاليد أحد النظامين الى نتيجته وغايته

حتماً بالنسبة الى كل فرد ، وهذا كما لو قلنا إن الطاعون منتشر في البلد الفلاني فليس معنى هذا ان كل فرد في ذلك البلد مصاب به حتماً . ولكن الحكم للغالب والشائع لا للقليل النادر . ومثال ذلك أننا لو قارنا ولو قايسنا بين منطقة بدوية أو ريفية في بلادنا وحي من أحياء باريز أو واشنطن لوجدنا حتماً ان نسبة حوادث الزنى أو عدد اللقطاء في البلاد الغربية أكثر بكثير منها في البلاد الإسلامية .

*

إن مباحث علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأحياء في العصر الحديث اثارت بعض جوانب مسألة المرأة والأسرة وأظهرت ضعف كثير من الآراء التي روجت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوربا باسم التجدد والحركة النسائية ، وراجت بعد ذلك ولا تزال في مجتمعنا وأبرزت سطحية كثير من هذه الأفكار وضلالها وخطأها الفاضح .

نجد هذا الاتجاه الجديد في معالجة هذه المشكلة وتحليلها في ضوء المباحث النفسية والاجتماعية والحيوية عند المفكر الكبير الدوس هكسلي ، والطبيب الكيماوي ألكسيس كاريل والكاتب الاجتماعي أندره موروا؛ وغيرهم ، وسأرسم فيما سأكتبه في كلماتي التالية بعض خطوط هذا الاتجاه ، وأنقل بعض هذه الأفكار ، لعلها تحرر بعض المفتونين باسم التجدد من سطحيتهم

ويسيرهم مع القطيع ومجاراتهم للتيار ولو كان منحرفاً ضالاً طريق الصواب .

*

ان تطور الحضارة وارتقاءها من بعض الجوانب يسير في اتجاه إظهار الفروق بين الأفراد وازدياد التخصص والتنوع ، وبالتالي اختلاف توزيع الأعمال بحيث أن المجتمع أي مجتمع كان كلما كان أرقى كان الأفراد فيه أبعد عن التماثل والتشابه وأقرب الى تنوع الشخصية واختلاف الاختصاص بحيث أن تضامن المجتمع وتكامله ينشأ من اختلاف الصفات والمزايا ، فلكل فرد مزية ليست في الفرد الآخر وكل واحد يتمم الآخر ويكمله ، ولو كانا متماثلين لما احتاج أحدهما للآخر ولا كان مكملاً له بل مكرراً .

وعلى هذا الأساس العام نفسه يقوم التعـــاون بين الرجل والمرأة في المجتمع ، بل أن مبدأ التكامل المتولد عن التنوع والتخصص أظهر هنا منه في أي مجال آخر . فالبشرية تتكون من مجموع (أزواج) لا من (أفراد) والمجتمع الذي يتساوى فيه جميع الأفراد في المزايا والخصائص وفي الخبرة والمعلومات وبوجه خاص يتساوى فيه الرجل والمرأة في نوع العمل والخبر هو مجتمع ابتدائي ، وكلما كان التنوع في الخبرة والمزايا والخصائص واختلاف في الخبرة والمعلومات أكثر وأعمـــق ، كان ذلك المجتمع أرقى .

يقول كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) :

«إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية وعن وجود الرحم والحمل او عن اختلاف طريقة التربية وإنما تنشأ عن سبب جد عميق وهو تأثر العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية . وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والاناث يمكن ان يتلقوا ثقافة واحدة وان يمارسوا أعمالاً متماثلة. والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل فكل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها وكذلك الحال بالنسبة الى أجهزتها العضوية ولا سيما الجهاز العصبي وإن القوانين العضوية (الفيزيولوجية) كقوانين العالم الفلكي لا سبيل الى خرقها ، ومن المستحيل ان نستبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي فالنساء يجب ان ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة دون ان يحاولن تقليد الذكور ، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال فلا ينبغي لهن ان يتخلين عنه » .

وقال أيضاً :

« يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة إلى المرأة مع أن هذه الوظيفة ضرورية لكمال نموها ، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة ، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة ، ولا أن يكون لهم

أسلوب واحد في الحياة ، ولا مثل أعلى واحد ، وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى ، وما بين دوريهما الطبيعيين . فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول ، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتمدن » .

ويقول الدكتور مارانون :

« إن من المحقق أن كمال الإنسانية في حياة الجنس يتم ويجب أن يتم في اتجاه التطلع إلى التنويع أو التفريق الجنسي الآخذ الدقة بأن يصبح الرجل أكثر ما يكون رجلاً والمرأة أكثر ما تكون امرأة[1] » .

ان الدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة تؤدي إلى التزاحم والتنافس والصراع بين الجنسين والدعوة إلى التكامل بسبب الاختلاف وانفراد كل جنس بمزايا وخصائص يؤدي إلى التعاون والائتلاف .



ان الاسرة هي مظهر تعاون الجنسين وهي ضرورية لضعف الطفل الإنساني مدة طويلة ، وفي داخل الأسرة يتكون الحب من جانب الأم للطفل والزوج ، ومن جانب الأب للزوجة وللطفل . والأمومة صفة أساسية فطرية في المرأة سواء أكانت

---

(١) Le Corps et l'âme (الجسم والروح) تأليف الدكتور رونه بيو R. Biot المطبوع في باريز من مجموع Presences .

أما بالفعل أم لم تكن بل سواء أكانت متزوجة أم لم تكن ، وهي ضرب من الحنان والحب والرعاية تشعر بها المرأة شعوراً فطرياً . وإذا لم يكن لها ولد انصرف هذا الشعور إلى قريب تعطف عليه ، بل أحياناً إلى غريب تتخذه ولداً لها .

والأسرة هي البيئة الصالحة الطبيعية المادية والمعنوية لتكوين العواطف الطبيعية في الإنسان . والمرأة لها فيها دورها الخاص فهي العنصر الثابت ، والركيزة الدائمة ، وهي المنبع الطبيعي لعواطف الود والحنان ، في حين أن الرجل هو عامل الارتباط مع ما هو خارج الأسرة ، مع المجتمع ، وهو الذى يمارس الصراع في الخارج ، الصراع مع الطبيعة أو مع المجتمع ، سواء أكان صراعاً مادياً لكسب العيش أو معنوياً في سبيل عقيدة أو دعوة ، أم كان مجموعاً منهما فالرجل تبنى طبيعته على الصراع القاسي ، والمرأة قوام طبيعتها إشعاع الحب والحنان ، ولذلك كانت الأسرة أو الزوجة بوجه خاص البيئة التي يجد فيها أفراد الأسرة من زوج وأولاد السكينة والطمأنينة ويجد الرجل من تبادل الود ما لا يجده في الخارج .

ذلك هو جوهر الأسرة وهو ما أشارت اليه الآية الكريمة (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ومن أروع وأجمل ما قيل في تلخيص وظيفة المرأة الأساسية الحديث الوارد في الصحيحين (خير نساء ركبن الإبل ،

صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده) .

ان السكينة أو الطمأنينة ، والمودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين وحنو الأم على الصغير ورعايتها لمال الزوج وبيته هي العناصر الأساسية التي أوردتها الآية والحديث على أنها قوام الحياة الزوجية المشتركة بين المرأة والرجل .

*

إن سلامة هذه البيئة الطبيعية التي يتكون فيها الإنسان تكونا طبيعيا سليما وهي الأسرة لا تكون إلا بتقوية أواصر الأسرة وجعلها المتنفس الطبيعي الوحيد للحياة العاطفية الجنسية المشتركة سواء بالنسبة للمتزوجين الذين كوّنوا هذه الخلية الأساسية أم بالنسبة لغير المتزوجين وان الخلل إلى المجتمع يأتي من خرق هذا الجدار ، ومن نشوء علاقات جنسية خارج الأسرة ومن وراءها وشيوع ذلك سواء بالنسبة إلى حياة ماقبل الزواج أم بالنسبة إلى فترة الحياة الزوجية هو إضعاف للأسرة وإفساد لتكوينها ، وخرق لجدرانها وان المجتمع كلٌ واحدٌ ، وإن أي حادثة في هذا المجتمع ولا سيما إذا شاعت وأصبحت ظاهرة عامة في تكوين هذا المجتمع ، تؤثر في كيان الأسر التي يتكوّن منها ولو لم يكن لهذه الأسر علاقة مباشرة بالحادثة أو الظاهرة .

إن أخصائيا كبيراً قام بأبحاث هامة وإحصائيات دقيقة

نشرها في كتاب عنوانه « الثقافة والجنس » ونقل عنه المفكر الكبير (الدوس هكسلي) في كتابه « الغايات والوسائل »[1] بعض النتائج ووصفه بأنه عظيم وأهم هذه النتائج وجود علاقة عكسية بين النشاط الفكري والاجتماعي والفني من جهة والإباحية الجنسية من جهة أخرى وأنه لا يمكن تلازمهما أكثر من جيل ، وأن العفة أو الاحصان شرط ضروري يسبق كل نوع من الحياة الخلقية التي تسمو على الحياة الحيوانية إلى غير ذلك من الأفكار والنتائج الهامة التي هي وليدة أبحاث اجتماعية ودراسات .

*

وإن قيام المجتمع على أساس العفة والاحصان وسلامة الأسرة والحياة الزوجية يستلزم اتخاذ تدابير عملية من جهة ، والقيام بتهذيب خلقي من جهة أخرى ، ولا بد من اجتماع الأمرين معاً وهذه التدابير العلمية مبناها على حصر انطلاق الغريزة وإثارتها في نطاق الحياة الزوجية ، والحيلولة دون هذه الإثارة في خارجها ، ومن هنا تنشأ العادات المتعلقة باللباس المحتشم غير المثير وبتحديد الصلة بين الرجال والنساء على أساس عدم الاختلاط في المجالس والبيوت اللهم إلا في حدود ضيقة بعيدة

---

(١) راجع فصل الأخلاق من كتاب Ends and Means المترجم الى الفرنسية بعنوان la fin et les moyens لمؤلفه الفيلسوف الكبير المعاصر Aldous Huxly ولم يترجم هذا الكتاب القيم الى العربية ترجمة كاملة .

عن الاثارة كالبيع والشراء ، والاشتراك في العبادة كالحج والصلاة ، أو في درس عام مشترك لكل من الجنسين جانب خاص منه أو ما شابه ذلك ، وهذا ما أخذ به الإسلام من منع التزين والتبرج في اللباس والزينة ، ومن منع خلوة الرجل والمرأة ولو من غير زينة ولا تبرج ومنع الاختلاط المطلق ، وفي غير مناسبات الحاجة والضرورة كالزيارات والسهرات المشتركة .

ولذلك فإن من الخروج عن جادة الإسلام وعن جادة الاستقامة والفضيلة في نظر الإسلام ما يفعله الناس اليوم من كشف الرأس والصدر والساق والذراع ومن تزيين الوجه والتعطر واتخاذ الألبسة الضيقة وذات الألوان اللافتة للنظر والمثيرة والألبسة القصيرة ، ومما يفعلونه من القيام بزيارات مختلطة وسهرات مشتركة ولا سيما مع هذا التزين وبهذه الألبسة هو في نظر الإسلام من كبائر الآثام ومن المحرمات التي لا يمكن أن تغطيها أو تقبل معها صلاة أو دعاء أو حج لأن في ذلك اعلان حرب على الله ورسوله وعلى الإسلام والقرآن فليتق الله هذا الفريق من الناس بوجه خاص ممن اتخذوا الإسلام ديناً وآمنوا بالله وكتابه ورسوله وتقربوا إلى الله بإقامة الصلاة وصيام رمضان، وليعيدوا النظر في حياتهم ليسجلوا أنفسهم في سجل الإيمان والطاعة ، أو في سجل الكفر والمعصية وليصححوا حياتهم هذه ولو أدى الأمر لهدم هذه الأسرة القائمة على محاربة الله

ورسوله ، وبناء أسرة غيرها ، أي ولو أدى الأمر إلى مفارقة الزوجة المصرة على البقاء في نظام الكفر والاباحية من جهة اللباس والزينة والاختلاط وانه من أشد الناس مؤاخذة في هذا المجال الشبان الذين نشأوا على التدين ثم هم حين يريدون أن يتزوجوا يعرضون عن الفتيات المنتهجات نهج الإسلام في حياتهن وينتقون زوجاتهـم من المعرضات عن خطة الإسلام ونهجه ، ومن المتحديات لنظام العفـة والحشمة والمتزينات المتبرجات ، فهؤلاء الشبان يرتكبون جريمة كبيرة بأحداثهم روح النقمة على التدين في نفوس المتدينات بإعراضهم عنهن ويشجعون الفاسد المتنكر للإسلام .

يتبين مما تقدم من أفكار ان موضوع الرجل والمرأة ليس في اختيار إحدى فكرتين التفضيل أو المساواة ، وإنما هو موضوع اختلاف في الخصائص يقتضي اختلافاً في التخصص والعمل ،ويقتضي توزيع الأعمال بحسب الاستعدادات والخصائص وذلك ما أخذ به الإسلام فهناك من جهة مساواة كاملـة في الإنسانيةوما يتفرع عنه من كرامة أخلاقيةوتكليف ومسؤولية فالنساء شقائق الرجال كما في الحديث والله « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً » و « خلقكم من نفس واحـدة » كما ورد في القرآن الكريم .

وهناك من جهة أخرى تفاوت واختلاف . اختلاف في التركيب العضوي ، واختلاف في التكوين النفسي ، ينشأ عنها

اختلاف في الصفات والخصائص والمزايا ، وهذا التفاوت في الخصائص يقتضي توزيع الأعمال في الحياة بين الرجل والمرأة توزيعاً يتناسب مع هذه الخصائص المتنوعة المختلفة .

وكذلك الناحية الحقوقية فالحق هو ممارسة لوظيفة اجتماعية وينشأ بنشوئها ، ولذلك كانت الحقوق المتعلقة بالصفة الإنسانية للرجل والمرأة متساوية ، وأما الحقوق المتعلقة بالأعمال الموزعة بينهما توزيعاً متناسباً مع الخصائص فهي كذلك مختلفة ومتناسبة مع توزيع الأعمال ، وهذه قاعدة مطبقة في المجتمع اليوم فحقوق الناس تختلف باختلاف مؤهلاتهم المكتسبة ، ومؤهلاتهم المكتسبة نتيجة لاستعداداتهم الفطرية فحملة الشهادات العليا من أطباء ومهندسين وحقوقيين ، وحملة الشهادات الثانوية العامة والمهنية ، وحملة الشهادة الابتدائية كل هؤلاء يشتركون في الحقوق الانسانية ولكنهم يتفاوتون في الحقوق الناشئة عن شهاداتهم ومؤهلاتهم وكفاياتهم العلمية والعملية فليس للطبيب أن يدافع أمام المحاكم ، ولا للمحامي أن يمارس الطب ، وقد يعطى للأطباء أو المهندسين أو المحامين حقوق انتخابية في تكوين بعض المجالس لا تعطى لغيرهم ، كذلـــك موضوع الرجال والنساء مساواة إنسانية خلقية معنوية ، وتفاوت وتنوع في الأعمال وأنواع النشاط تنشأ عنه إنسانية كاملة راقية متخصصة . هي نوع واحد يتكون من جنسين كلاهما يعمل لخير النوع كله بتحقيق إمكانيات جنسه ونموه في إطار جنسه واستعداده ووظيفته .

فكرة التطور

التطور كلمة حديثة العهد في لغتنا وفي اللغات الأخرى ، ومعناها التغير وفقاً لسنة مطردة أو الانتقال في أطوار متعاقبة حسب قانون ثابت ونظام معين . وقد بدت هذه الفكرة عند بعض العلماء في العصور السالفة كابن خلدون الذي استنتج سنن تطور الأمم من تاريخ حياتها . ولكن هذه الفكرة لم تشع وتنتشر إلا في العصور الأخيرة ولا سيما بعد ظهور نظرية التطور في علم الأحياء (البيولوجيا) ثم عممت هذه النظرية في ميادين أخرى ولا سيما في علم الاجتماع وسائر العلوم الانسانية. وأخذ علماء الاجتماع يبحثون في حياة الانسان الاجتماعية ويستنتجون قوانين تطورها الاقتصادي والفكري والسياسي والديني واللغوي والفني .

وانتقلت هذه النظرية من وسط العلماء والخاصة إلى وسط الجمهور والعامة فتغيرت بعض معالمها ، وفهمت فهماً آخر شابه كثير من الأخطاء والالتباسات التي سببت إصدار أحكام خاطئة في كثير من المجالات . لذلك كان من الضروري كشف

هذه المفاهيم ، وإزالة ما يقع من التباس وتصحيح الخطأ في تلك الأحكام .

التطور في الطبيعة ينشأ على رأي بعض المتأخرين من العلماء من الملاءمة بين الموجودات ولا سيما الأحياء والبيئة التي تعيش فيها . فإذا تغيرت البيئة كان لا بد من ملاءمة جديدة للكائن ، وهذه الملاءمة باستمرارها تحدث تغيراً فيه وتنقله إلى طور جديد إلى أن يحدث تغير في البيئة ولذلك قد يبقى في طور من أطواره أمداً طويلاً ويكون التطور أكثر مايكون تغيراً بطيئاً مستمراً تظهر نتائجه بعد زمن طويل . أما إذا كانت الملاءمة بين الكائن والبيئة قائمة فإن هذا الكائن يحافظ على خصائصه ويثبت في أوضاعه . ولذلك كان الثبات سنة من سنن الطبيعة كالتغير ، أو على الأقل الثبات مدداً وآماداً طويلة وأحياناً دهوراً متطاولة ، فمنذ كم لم يتغير تركيب الماء وكان هو الشراب ، الشراب الأساسي للأحياء ؟ أو لم تبق المادة الغذائية الأساسية للإنسان هي منذ آلاف السنين ؟ أو لم تبق الأشجار في أجناسها وأشكال جذوعها وأوراقها ثابتة منذ آلاف السنين ؟

ان الثبات ولا سيما على الأصول سنة من سنن الطبيعة كالتغير والتطور حين ينشأ الموجب للتغير والتبدل . فلاعجب إذا حافظ الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية على ما ثبت صلاحه ونفعه من العادات والنظم والأخلاق .

ومما يلاحظ في الطبيعة أن التطور لا يتجه دوماً نحو الأفضل والأحسن ، ولا يكون دوماً تحسناً وتقدماً بل قد

يكون متجهاً نحو الأسوأ وهو التردي . ففي عالم الأحياء قد يؤدي تطور بعض أنواعها إلى إنقراضها ، وفي حياة الأمم قد تنتقل الأمة من طور المجد والحضارة إلى طور الإنحطاط والضعف والفقر ، سواء في حياتها الفكرية أو الخلقية أو الاقتصادية . فمما لا شك فيه أن العرب في صدر الإسلام حتى أوائل العصر العباسي كانوا في طور أرقى وأرفع من الطور الذي مروا به في عصور الإنحطاط الأخيرة ، وانهم في عهد ابراهيم كانوا موحدين ثم مرت بهم فترة الوثنية التي سبقت الإسلام . ولذلك كان من الخطأ ظن بعض الناس أن كل تطور حسن وإن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، فليس كل حاضر أفضل من الماضي ولا كل مستقبل أفضل من الحاضر . والقضية ليست قضية زمن فقد يكون الماضي أفضل من الحاضر ، كما يمكن أن يكون الحاضر أفضل من الماضي . ومثال ذلك في الفرد أن يكون في حاضره مريضاً بعد أن كان صحيحاً قوياً ، وفي الأمم أن تكون في حالة تفسخ وتأخر وإنحلال وفساد ، بعد أن كانت في فترة من تاريخها قوية متماسكة مرتفعة في تفكيرها وخلقها غنية في اقتصادياتها . ومن هنا نستنتج فكرة هامة تصحح خطأ شائعاً وهي أن الرجوع إلى الماضي يكون سيئاً إذا كان ذلك الماضي سيئاً ، وحسناً إذا كان ذلك الماضي حسناً فليس كل رجوع إلى الماضي مذموماً . فالمريض يتمنى أن يعود إلى عهد صحته وقوته ورجوع العرب إلى ماضيهم القريب

سي، لأنه عودة إلى عهود انحطاطهم وضعفهم ولكن رجوعهم إلى عهود مجـدهم وازدهار حضارتهم واستمدادهم العناصر الخالدة والصفات السامية من ذلك الماضي هو أمر محمود ومثله تخليهم عن الصفات القبيحة التي هي من آثار عهـد الاستعمار والنفوذ الأوربي كشيوع الأنانيـة والاباحية والاثارة الجنسية ، إن تخليهم عن هذه الصفات التي لصقت بهم في العصر الحديث من الأمور المحمودة بل الواجبة مع أنهـا من الحاضر لا من الماضي .

ولا شك ان مفهوم العرب القديم للعلاقات الاجتماعية في التضامن والإيثـار والوفاء والمشاركة والأخوة والإنسانية وللشرف والحفاظ على العرض والعفاف والبعد عن الإثارة في غير طريقها الشرعي الذي هو الزواج ، ان مفهومهم هـذا سواء في العهد الجاهلي أو بعد الإسلام والتزامهم لهذه الأخلاق السامية أفضل بكثير من سلوكهم ومفهومهم الخلقي في هذا العصر الذي تأثروا فيه بالحياة الأوربية وما فيها من أثرة فردية ومادية غالبة وإباحية وعدم مبالاة بحفظ الأنساب والأعراض وسلوك الطرق المؤدية إلى الإثارة الجنسية والخروج بهـا عن طريقها الشرعي الطبيعي الذي هو الزواج ، وتظاهر المرأة بما يتناسب مع هذا المفهوم الإباحي . ان من السطحية وقـلة الثقافة بل من المخالفة لسنن الكون في التطور اعتبار كل رجوع إلى رجعية مذمومة وهو لا يقل خطأ أيضاً عن اعتبار كل

تمسك بالقديم أو رجوع إلى الماضي مهما كان ، امرأ حسنا وعملا محموداً .

هذا وان التطور قد يكون تحسناً في ناحية ووقوفاً أو ترديا في أخرى فلو نظرنا إلى تطور الحياة الإنسانية في طورها الأخير لوجدناها من الناحية العقلية والصناعية تفوق كل الأطوار السابقة على الاطلاق ومن العسير ان نطلق هذا الحكم على جميع النواحي الأخرى ، بل إن بعض أطوار البشرية في بعض البلاد كانت أحسن من الوجهة الخلقية في تعاون البشر وتضامنهم ونمو العواطف الإنسانيـة فيهم من العنصر الحديث ، وكذلك الفرد الإنساني فقد اكتسب صفات عقلية ومرونة نفسية في العصور الحديثة لم تكن عنده في العصور السالفة ، ولكنه أضاع كثيراً مما يمتاز به الإنسان القديم من قوة المقاومة الجسمية والجلد والصبر والقدرة على مقاومة عوارض الطبيعة ، بل أضاع كثيراً مما امتاز به أحياناً في بعض العصور والمدنيات من نمو الملكات الروحية والنفسية .

لقد ابتليت بعض العصور بتقديس القديم ولو كان لا يستحق التقديس ولا التعظيم ، كما ابتليت عصور أخرى بتقديس الجديد وتعظيمه ولو كان غير جدير بالتعظيم والاستحسان . والحق ان الخير والحقيقة والجمال هي مقاييس التعظيم والتحقير ، ومعايير الأخذ والترك ، وليس التقدم أو التأخر في الزمن .

ومن الواجب على كل حال دراسة اتجاهات التطور في كل ميدان من ميادين الحياة لمعرفة الاتجـــاه الطبيعي وعوامله وأسبابه ، والاستفادة من هذه المعرفة لحث الخطى والإسراع في السير وحسن الاستفادة من النتائج إذا كان ذلك الاتجاه في نظرنا مفيداً نافعاً ، ولتدارك الأخطار وتخفيف المضار إذا كان ذلك الاتجاه ضاراً .

إن من المفيد جداً أن نعرف اتجاه الصناعة في العالم لنستعد للمرحلة القادمة سواء أكانت نافعة لنا أم ضارة ، وأن نعرف كذلك اتجاه النظم الاقتصادية للبلاد المحيطة بنا ، كما أن من المفيد أن نعرف اتجاه السيل وموعد الفيضان لنستثمر الماء الغزير أو لندرأ الاضرار المرتقبة .

إن الأمة العربية في مرحلة دقيقة من مراحل تطورها يجب فيها بث الوعي الصحيح والتفكير السليم دون الاندفاع في التقليد الأجنبي أو الاستمرار في المألوف من عادات الماضي القريب ففي ما نستقبل من حضارة الغرب نواح جديرة بالأخذ والاقتباس والاستثمار وبعضها يصلح بعد الملاءمة والتكييف ، كما أن فيها مـــا ينبغي تجنبه ومقاومته ولو وافق هوى في النفوس. كما أن في حضارتنا القديمة وتراثنا وتاريخنا عناصر هامة وصالحة واتجاهات صحيحة وحقائق خالدة ولا سيما في مجال الأخلاق الاجتماعية والفردية وفي مجال العقائد والآراء .

يجب أن نفهم التطور فهماً واعياً سليماً لنحسن الاستفادة

من تجارب الأمم وتجاربنا ولنستطيع أن نبني نهضتنا وحضارتنا الحاضرة والمستقبلة بناء سليماً يفيد الانسانية جميعاً .

الإسلام والتطور

نحن نجد القرآن قد أشاد بالعقل ، واحترم أحكامه فيما يدخل تحت سلطانه ومحاكماته ، وهو حين يلفت نظر الانسان إلى الحياة وأسرارها ، ويطلب منه أن يتأمل في نفسه وفيما حوله تأمل باحث مفكر ، إنما يعلن القرآن بذلك ثقته بالعقل واحترامه له ، وإحلاله ، المحل الأول في استفادة الإنسان من هذه العوامل كلها . يقول الله تبارك وتعالى « **وفي الأرض آيات للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون** » ؟ .

فنظر العقل إلى أسرار الحياة يقرر حقيقة واضحة : هي أن الإنسان مهما اكتشف من أسرار الحياة فلن يحيط بها كلها في عصر واحد ، وستظل تنكشف للناس شيئاً بعد شيء ، وهذا يستتبع أن الحياة في تطور مستمر ، وكشف عن المجهول متتابع ، وعلى الإنسان ان لا يقنع بما علم ، وان يعتقد أن فوق علمه علماً « وفوق كل ذي علم عليم » .

لقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الأخلاق القويمة وباسم التقدم والتطور ولمحاربة الإسلام وتشريعه ونظمه ومثله العليا واستعيرت كلمة الرجعية التي نشأت بعد الثورة الفرنسية لوصف حركة المناوئين لها — لمحاربة الدين والأخلاق

بوجه عـــام والاسلام بوجه خاص ان نشر فكرة التطور في مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها والعقائد الدينية لتهديمها، عمل من أعمال اليهود وكتابهم في أوربا وأمريكا وهدفهم من ذلك أن لا يبقى شيء ثابت في الحياة مطلقاً وبذلك تتقوض الفضائل والحقائق الدينية الكبرى وأهمها الإيمان بالله وبالنبوات وبتعاليمها الأساسية ليبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم وليكون غيرهم في قلق دائم وثورة عارمة لا تبقي ولا تذر وتردٍ من دركٍ إلى درك في مهاوي الانحطاط والرذيلة .

إن في الوجود حقائق كثيرة ثابتة وفي الكون قوانين ثابتة وظواهر مستمرة متعاقبة وفي الحياة اتجاهات أخلاقية ومثل عليا لا تتبدل والدعوة إلى التغير المستمر دعوة يهودية ماكرة يراد بها قلب المجتمعات واحداث القلق ومنع الاستقرار في العالم وهي دعوة منافية للحقيقة ومنافية كذلك للفضيلة والمثل الأعلى وعائقة عن التقدم وهي كالدعوة إلى الثبات في كل شيء فالحياة أقامها الله على سنتي الثبات والتغير معاً ثبات في نواح وتغير في نواح أخرى .

وقد راعى الإسلام نفسه هذه السنة فثبت ما يجب تثبيته من أفكار وعقائد أو أخلاق ونظم وفسح المجال لتغيير الكثير من العبادات وتفاصيل النظم وأشكال الحياة والأفكار المتعلقة بحقائق الكون التي جعـــل معرفتها منوطة بالعقل والتفكير والتجربة والتأمل .

مذكرة تاريخية

حول التشريع الإسلامي

كان القانون المدني المعمول به في سورية قبل عام ١٩٤٩ هو مجلة الأحكام العدلية التي وضعت في العهد العثماني وأخذت أحكامها من المذهب الحنفي ، وقد عرضت الحكومة في عهد الانتداب الفرنسي في سورية ١٩٣٥ مشروعاً فرنسياً ايطالياً (قانون العقود والموجبات) ليحل محل المجلة كما فعلت في لبنان وألفت لجنة من كبار القانونيين في سورية لقبول المشروع أو رفضه، وكنا يومئذ طلاباً في السنة الأخيرة من كلية الحقوق.

وكان من حسن الحظ أنني كنت خلال سنوات الدراسة الثلاث في الكلية أتتبع المقارنة بين مجلة الأحكام العدلية والقانون المدني الفرنسي الذي كنا ندرسه أيضاً وكنت إذا وجدت اختلافاً بينهما أرجع إلى المذاهب الفقهية الأخرى لأعرف رأيها وأسجل هذه الآراء وكنت أستعين بكتاب بداية المجتهد لابن رشد والافصاح لابن هبيرة[١] من كتب الفقه المقارن وبحاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي وشرح الحطاب

---

(١) وهو كتاب لطيف مفيد على صغر حجمه يذكر في كل موضوع ما اتفق فيه أئمة المذاهب الأربعة وما اختلفوا فيه دون ذكر الدليل وهو جزء من كتاب كبير اسمه الإفصاح عن معاني الصحاح وكان الوزير ابن هبيرة مشرفاً على تأليفه الذي كان يقوم به عدد من العلماء وكان قد طبع هذا الجزء لأول مرة الشيخ راغب الطباخ رحمه الله في حلب .

والمواق على خليل في الفقه المالكي وغيرهـــا فتمكنت بهذه المادة التي تجمعت خلال السنوات الثلاث أن أكتب هذه المذكرة (١) التي وقع عليها يومئذ طلاب الحقوق وقدمناها يومئذ إلى المسؤولين ووزعناها على أعضاء اللجنة ، وكانت عندهم محل تقدير وكان لها وقع حسن وأثر في النتيجة الـتي انتهت إليها اللجنة وهي رفض المشروع .

نثبت هنا هذه المذكرة التاريخية الـتي كتبت في زمن لم تكن قد اجتمعت فيه معركة التشريع بين الإسلام والمذاهب الأجنبية لنبين للناس كيف كان الفكر الإسلامي يتكون ويختمر في الرؤوس خلال عشرات السنين في هذا العصر الحديث وكيف أتيح لي ولأمثالي في البلاد الإسلاميـة أن يكونوا بفضل الله على الجادة القويمة والاتجاه السليم وأن يحاولوا بعث التشريع الإسلامي متحرراً من عصور الجمود ومن الانسياق في تيار التقليد الأجنبي .

(١) نشرت هذه المذكرة في جريدة القبس الدمشقية في ٢٠ /٥/ ١٩٣٥ العدد ٥٩٢ .

طلاب الحقوق
وقانون الموجبات الجديد

من واجب واضعي القانون أن يتقيدوا بروح التشريع الإسلامي والاجتهادات المذهبية المستمدة من الشرع تغني عن قوانين الغرب واجتهاداته .

أشرنا في « قبس » أمس إلى اهتمام طلاب الحقوق بمشروع قانون الموجبات الجديد الذي بدأت اللجنة الحقوقية الخاصة بدرسه ، وقلنا إنهم وضعوا تقريراً بشأنه رفعوا صوراً منه إلى رئاسة الوزارة وأعضاء اللجنة المذكورة ، وهذا أهم ما جاء في التقرير المذكور[١].

---

(١) أثبتنا هنا العنوان كما وضعته جريدة « القبس » في ذلك الحين ، والمقدمة التي قدمت بها الذكرة أو التقرير الذي رفعه طلاب الحقوق سنة (١٩٣٥) إلى الجهات المختصة، وهي المذكرة التي كنت أعددتها، كما أنني كنت كتبت بالاشتراك مع الأخ الدكتور معروف الدواليبي ، وكنا يومئذ زملاء في الدراسة ، بضع عشرة مقالة في نقد قانون العقود والموجبات الذي كان مطروحاً للنظر باعتباره مشروعاً لقانون مدني سوري ونشرت هذه المقالات في صيف ١٩٣٥ اثر تخرجنا من كلية الحقوق ، وكان للمذكرة والمقالات أثر كبير لدى اللجنة القانونية المؤلفة يومئذ الـــتي أعطت رأيها في آخر الأمر برفض المشروع .

القانون لا يفرض فرضاً :

قال الطلاب بعد مقدمة وجيزة :

القانون كما يقول علمـــاء الحقوق وليد العادات ونتيجة الماضي يتأثر بجميع العوامل التي تؤثر في الأمة من عادات محلية وأمور تاريخية وعنعنات سابقة وضرورات آنية ومؤثرات خارجية وغيرها . فالمتشرعون لا يضعون في الحقيقة القانون وضعاً أو يفرضونه فرضاً على الناس فهم عند وضعه يتأثرون بكل هذه العوامل ، ولا سيما هم في الغالب أفراد من تلك الأمة يتأثرون بما تتأثر هي به . وإذا لم يكن القانون ممتزجاً بنفسية الأمة ومتصلاً بماضيها ورابطاً به حاضرها ومتلائماً مع عقيدتها وكيانها الخاص فهو عقيم وفاسد ومضر .

فهل هذا القانون الجديد الذي يراد النظر في إقراره أو رفضه أو تعديله مستوف لهذه الشروط وملائم لروح الأمة وسهل الامتزاج بنفسيتها وممكن التطبيق بالسهولة الكافية ، وهل يبقى هذا القانون على صلة الأمة بماضيها التشريعي ويصلح لأن يكون حلقة من سلسلة التطور في تاريخ تشريعها .

التشريع الإسلامي :

لئن جمـــد التشريـع في دور من الأدوار في عهد الدولة العثمانية وحصلت فوضى عظيمة في التشريـع لا تزال آثارها

بادية ، فإن فيما وراء هذا الدور أدواراً تشريعية زاهية كان فيها القضاء والتشريع على درجة عظيمة من الرقي والانتظام والاتساع في الاجتهاد والتطبيق تسيره روح العدل والحق ويمتاز بالسهولة والمرونة .

أليس الأجدر إذن بالحكومة اليوم أن تصل تلك السلسلة التي انقطعت فترات من الزمن . وتجمع ما تشتت وتأخذ من ذلك الاجتهاد الواسع وتستمد من مختلف المذاهب الإسلامية ما تقتضي به الحاجه وتوجبه المصلحة . ولها من تلك المذاهب مجال واسع وميدان رحب لا يضيق بها أبداً إذا هي عمدت إلى ذلك وسلكت إليه السبل الموصلة .

قد يظن البعض أن التشريع الإسلامي بأوسع معانيه يضيق ذرعاًبما وسعته القوانين الأوربية من مختلف الاجتهادات والنظريات . والحقيقة أن هذا الظن مصدره عدم الاطلاع والبحث والتنقيب والمقايسة ، ولو أن امرءاً نظر في بحث من الأبحاث الحقوقية في كل مذهب من مذاهب مجتهدينا وفي مختلف الأقوال والنظريات في المذهب الواحد لخرج من ذلك بمجموعة من النظريات والاجتهادات تكون الاجتهادات والنظريات الغربية الحديثة جزءاً منها .

نعم ان ما فعلته الحكومة العثمانية من الاقتصار على مذهب واحد أو بالأحرى على رأي واحد والتمسك بهبصورة مطلقة هو الذي أدى إلى الأخذ بالقوانين الأوربية فيما مست

الحاجة إلى تغييره أو إلغائه أو إحداثه . ولكن ما الباعث على الدخول في هذا المأزق الحرج والتضييق على أنفسنا إلى حد أوصلنا إلى الالتجاء إلى الغير ونحن من أمرنا على سعة ولنا من ثروتنا التشريعية ما فيه الغناء .

أمثلة وبراهين واضحة :

وفي استطاعتنا الآن أن نخرج من البحث المجرد ونضرب على ما قلناه أمثله واضحة نبين فيها الحكم في القوانين الغربية . وفي مختلف المذاهب الإسلامية ونبين أن أكثر ما يعرض لنا في المجلة أو في المذهب الحنفي بصورة عامة من القضايا المخالفة في الحكم للتشريع الافرنسي مثلاً . لا بد أن تجد الحكم فيه لدى أحد المذاهب الأخرى على الأقل موافقاً للقانون الإفرنسي إن لم تكن كلها متفقة معه في ذلك . ومع هذا يجب أن نلاحظ جيداً أن التشريع الغربي ليس هو المثل الأعلى في التشريع من جهة وليس هو القانون الملائم لنا والموافق لطبيعتنا من جهة أخرى .

١ – فمن تلك الأمثلة أن اشتراط شرط في عقد البيع مفيد لأحد العاقدين مفسد للعقد عند الحنفية ، وهو جائز عند الإمام أحمد بن حنبل ان كانت المنفعة المشروطة مباحة ومعلومة . كاشتراط البائع سكنى الدار التي باعها مدة معينة (انظر نيل المآرب شرح دليل الطالب ج ١) وكذا عند

الأمام مالك إن كانت المنفعة المشروطة يسيرة كما لو كانت سكنى المشروطة في المثال بضعة أشهر . ومن الفقهاء من أجاز جميع الشروط واعتبرها . وبذلك أخذ ابن أبي شبرمة .

٢ – ومن ذلك أن الإجارة تنفسخ عند الحنفية بموت أحد العاقدين على ما كان معمولاً به عندنا سابقاً . وهي لا تنفسخ بذلك عند الأئمة الثلاثة الشافعي ومالك وأحمد (انظر بداية المجتهد لابن رشد ج ٢/ ص ١٩٢) وهو الموافق للقوانين الحديثة . وترى في هذا المثال أن الثلاثه متفقون فيه على خلاف أبي حنيفة .

٣ – ومن ذلك القول بعدم تجزئة الاقرار . كما لو قال المدعى عليه كان له علي ألف وقضيتها . فقال الإمام أحمد : القول قوله في الكل فلا يلزمه شيء (الافصاح للوزير ابن هبيرة ص ٢١٢) وذلك خلافاً للحنفية .

٤ – ومن ذلك ان الإعارة عقد غير لازم عند الحنفية فللمعير الرجوع عنها متى شاء (مجلة مادة ٨٠٦) . وهي في القانون الافرنسي لازمة فليس للمعير طلب رد العارية قبل انقضاء الأجل في الاعارة الموقتة . وهي كذلك عند الإمام مالك . فليس للمعير استرجاعها قبل أن ينتفع بها المستعير وان شرط مدة ما لزمته تلك المدة . وإن لم يشترط مدة لزمه من المدة ما يرى الناس أنه مدة لتلك العارية (بداية المجتهد ج ٢ / ص ٢٦٢) .

٥ — ومن ذلك أن الشفعة لا تكون إلا للشريك الخليط أي غير المقاسم فقط عند الشافعي ومالك وأحمد فلا شفعة عندهم للجوار . (انظر بداية المجتهد والافصاح في باب الشفعة) ولم يشترط الإمام مالك طلبها على الفور حتى ولا على الحاضر. وفي رواية عنه انها تسقط بمرور سنة على البيع ، وهذا يوافق ما أخذ به القرار ذو الرقم (٣٣٣٩) في المادة(٢٤٨) منه التي نصت على سقوطها بعد مرور سنة على التسجيل . وقد روي عن الشافعي ان أمدها ثلاثة أيام (بداية المجتهد) وهذا موافق للمادة (٢٤٧) من القرار المذكور التي نصت على سقوط حق الشفعة بعد مرور ثلاثة أيام على التبليغ .

٦ — ومن ذلك قبول شهادة الأخرس بإشارته المعهودة والأعمى في المرئيات -- إذا تحملها بصيراً — وفي الأقوال مطلقاً عند الإمام مالك .

٧ — ومن ذلك أن الإمام أحمد —في إحدى الروايتين عنه— قال : بأن المكيل والموزون إذا غصب وتلف يضمن بقيمته .

٨ — على أن أهم الأمثلة في هذا الباب قانون التجارة وهو مأخوذ عن القانون الافرنسي فالمتأمل في بحث الإفلاس من هذا القانون يجد مشابهة قوية بينه وبين بحث الإفلاس في كتب الفقه على مذهب الإمام مالك . فمن ذلك أن من نتائج الإفلاس عند

المالكيه كما هو مسطور في كتبهم منع المفلس من التصرف في المال الموجود ببيع ماله وقسمته وحبسه إلى ثبوت اعساره وحلول آجال الديون التي عليه وجواز بيع الديون التي له (ولا يباع ماله من الدين إلا أن يتفق الغرماء على تركها حتى عند حلولها) ومن أحكامه أن يدعى الغرماء من قبل القاضي وأن يعزل القاضي لمن غاب حصته إلى غير ذلك من الأحكام المشابهة كل المشابهة للقانون المذكور (راجع شرحي الحطاب والمواق على مختصر خليل ج ٥).

وفي هذه النبذة الصغيرة من الأمثلة المتنوعة أدلة كافية على اتساع التشريع الإسلامي واجتهادات مجتهديه وعلى إمكان الاستمداد منه. ولدينا من الأمثلة والمقارنات الكثيرة مايؤيد أن في تشريعنا ما يكفيه مؤنة الإلتجاء إلى تشريعات الأمم الأخرى ، وما يصلح لأن يكون مصدراً حقوقياً لسائر أمم الأرض على مختلف درجاتها من الرقي وفي جميع نواحي التشريع . فعسى أن لا نقع فيما وقعت به الحكومة العثمانية من الإرتباك والفوضى ، وأن تسرع حكومتنا إلى تلافي ما فرط في عهد تلك الحكومة فتكلف هذه اللجنة التي عينتها مع من ترى بهم الخير والكفاءة من كبار فقهاء المذاهب الأربعة بوضع قانون موافق لروح التشريع الحديث ومستمد من

التشريع الإسلامي . وبذلك تكون قد قامت بأعظم خدمة لهذه الأمة وأسدت إليها يداً لا يمحى أثرها مدى الدهر ، وربطت مستقبلها بماضيها ربطاً وثيقاً وأنشأت فيها روحاً جديداً يحمل في طواياه عوامل الرقي والنهوض إلى استعادة المجد التالد وتكوين المجد الطريف .



فهرست